رواية

عذراء شكلنزة



عمر عوض خريص

دار الأسعاء
للدراسات والنشر

عذراء شكلنزة

عمر عوض خريص

هذا الكتاب :

يتبلور التاريخ الشحري في ذلك الوجدان الخريصي الوقّاد, مما يجعله يتنقّل في أزمانه وحقبه وأحداثه بل وسير أعلامه, وتلك الصولات والجولات تمنحه الفرصة الأمثل لتصيُّد الأفكار وتكوُّن السياق الدرامي للحدث التاريخي والروائي على حدٍّ سواء، وهذا ما يتكشَّف أمام من يمخر بديع ما تخطُّه أنامل الروائي الجميل الأستاذ عمر عوض خريص حفظه الله تعالى.

نتشرَّف اليوم في "دار الأسعاء للدراسات والنشر" بمدينة الثقافة والأدب والتاريخ الشحر أن نقدِّم للقارئ الكريم هذه الرِّواية الخريصيَّة "الثالثة" على التوالي، وهي "عذراء شكلنزة" التي تدور أحداثها فيما يُعرف في السياق التاريخي الحضرمي بـ: "الغزو الوهابي لحضرموت" وخاصة ما دار في مدينة الشحر وضواحيها من ذلك الحدث الجلل الذي مرَّ على مدينة الشحر بأقل الخسائر بسبب وعي المجتمع والحكمة والدَّهاء السياسي الذي عُرِفَ به أمير الشحر حينئذ.

الأستاذ/ عادل صالح باعليم

عذراء شكلنزة

رواية

رقم الإيداع بالهيئة العامة للكتاب م/ حضرموت (٣٠١) لعام ٢٠٢٣م

عنوان الكتاب: عذراء شكلنزة ـ رواية.

المؤلف: عمر عوض خريص.

الحجم: ١٤ × ٢١ سم.

لوحة الغلاف: الفنَّان محمد سالم بن داود.

تصميم الغلاف: حُسام علي بامحسون.

الناشر

دار الأسعاء للدراسات والنشر

الشحر ـ حضرموت ـ اليمن؛ ت ـ وتس: ٠٠٩٦٧٧٣٨٤١٠٢٧١

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م

حقوق الطبع محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي.

عمر عوض خريص

عذراء شكلنزة

رواية

الإهداء..

إلى أستاذي وخالي وقدوتي

الشيخ الباحث عبد الرحمن بن عبد الكريم الملاحي

(رحمه الله وغفر له وأسكنه فسيح جناته)

حباً ووفاءً ودعاءً.

عمر خريص

الشحر: ١٥ مايو ٢٠٢٣م.

تصدير

يتبلور التاريخ الشحري في ذلك الوجدان الخريصي الوقَّاد، مما يجعله يتنقَّل في أزمانه وحقبه وأحداثه بل وسير أعلامه، وتلك الصولات والجولات تمنحه الفرصة الأمثل لتصيُّد الأفكار وتكوُّن السياق الدرامي للحدث التاريخي والروائي على حدٍّ سواء، وهذا ما يتكشَّف أمام من يمخر بديع ما تخطُّه أنامل الروائي الجميل الأستاذ عمر عوض خريص حفظه الله تعالى.

فمن زمانٍ إلى آخر، ومن حدثٍ إلى غيره يأخذنا هذا الأديب في أعماله الروائية، حيث بدأ بالقرن الثامن الهجري في روايته "أميرة الشحر"، ثم طاف على القرن العاشر الهجري في روايته الملحميَّة "السَّبعة"؛ والآن يعرِّج بنا على القرن الثالث عشر الهجري ليناقش بعض مسائل التاريخ الأكثر قلقاً وغموضاً في قالب إبداعي راقي، استطاع من خلاله استلهام التاريخ ليعرضه بسلاسة معتادة تميَّز بها أسلوبه الرَّشيق الجميل، مع إضافات دراميَّة - من خياله الخصب - لا يخلو منها أي عمل إبداعي وروائي.

نتشرَّف اليوم في "دار الأسعاء للدراسات والنشر" بمدينة الثقافة والأدب والتاريخ الشحر أن نقدِّم للقارئ الكريم هذه الرِّواية الخريصيَّة "الثالثة" على التوالي، وهي "عذراء شكلنزة" التي تدور أحداثها فيما يُعرف في السياق التاريخي الحضرمي بـ: "الغزو الوهابي لحضرموت" وخاصة ما دار في مدينة الشحر وضواحيها من ذلك الحدث الجلل الذي مرَّ على مدينة الشحر بأقل الخسائر بسبب وعي المجتمع والحكمة والدَّهاء السياسي الذي عُرِفَ به أمير الشحر حينئذ ناجي بن علي بن بريك رحمه الله تعالى.

ولا يسعنا الآن إلا أن ندعكم أعزائنا والمتعة اللا متناهية مع "عذراء شكلنزة" والأحداث التي زخرت بها هذه الرِّواية .. وإلى اللقاء القريب بإذنه تعالى في عملٍ إبداعي جديد.

عادل حاج باعكيم

مدير دار الأسعاء للدراسات والنشر

١٠ يوليو ٢٠٢٣م

-1-

شكلنزة 1224هـ..

لم تكن تلك الطلقات النارية المنبعثة من قلب قرية شكلنزة (وهي من قرى ساحل حضرموت وتبعد عن مدينة الشحر ١٨ كيلو متر) تحذيراً من مقدم الجيش السعودي الذي تاخم مشارف القرية وأطل بجحافله الضخمة الجرارة على حدودها، وليس لدى أهل شكلنزة علم بذلك، إلا أن أمير الجيش السعودي ناجي بن قملا أمر الجيش بالتوقف عن الزحف وعمل طوقاً على القرية من اتجاهاتها الثلاث الشرقي والغربي والشمالي تحسباً لأي طارئ أو كمين قد يكون معداً من قبل الإمارة البريكية التي تحكم ساحل حضرموت وتتخذ من مدينة الشحر عاصمة لها، ثم أمر الأمير ناجي بن قملا كتيبة من فرسان جيشه لاستطلاع الأمر والتغلغل إلى داخل القرية، وحين تخلل الفرسان خلال أشجار النخيل والنارجيل لم يلتقهم أحد ولا أصوات إلا من بعض فلاحي الأرض يترنمون بأهازيجهم

وهم يحرثون مزارعهم، وحتى بين البيوت الطينية لا يكاد يرون أي أحد أو يلمحوا أي تواجد مريب لمحاربين أو مدافعين عن القرية، وحينما شقوا طريقهم إلى ساحة القرية وجدوا جمهرة من الناس بين شيوخ وكهول ونساء وأطفال وأحد الرجال (حارس الدولة) يحمل على كتفه بندقيته وجميعهم متحلقين على شيءٍ ما، هكذا رآهم الفرسان المقبلين عليهم، وعندما صهلت أحصنة الفرسان استدار جميع أهل القرية الموجودين حينها إلى مصدر الصهيل، فإذا هم أمام كتيبة حربية من الفرسان تقتحم الساحة وتقف على أطرافها، خافت النساء فتوارت خلف الرجال محتمية وتعلق بهم الأطفال، والتحم الرجال بحارس الدولة وظلوا يرقبون تحرك الفرسان، فتقدم إليهم قائد الكتيبة وبجواره إثنان من جنوده وحين أقترب رأى جثة شاب نضير الوجه مسجاة على التراب ملفعة بالدم، فبدأهم بالسلام فردوا السلام وأطلقوا عبارات الترحيب والتحية، ونظر قائد الكتيبة إلى حارس الدولة وهو لا يعرف عنه هذا، وقال له مخاطباً:

ـ أأنت من قتلت هذا؟ (وأشار بأصبعه لجثة الشاب القتيل)

رد حارس الدولة بشيء من الإرتباك:

ـ لا لا.. أنما قتله صديقه دحمان الدرويش وفر هارباً..

ـ ولما تركته يفر وأنت على كتفك البندقية؟

ـ لم أكن موجوداً حينها، فعندما سمعت صوت الرصاص أسرعت إلى هنا لأتفقد مصدر الصوت، فوجدت سعد هذا مقتولاً وحولهُ نسوةٌ أقعدهنَّ

الخوف وهن ينتحبن، وسألتهن من فعل هذا؟.. فأجابوني دحمان الدرويش وأشاروا إلى حيث فر هارباً في هذا الأتجاه.

ـ وأنت لما تحمل البندقية؟

ـ أحملها لأني حارس الدولة أحرس هذه القرية وأحفظ الأمن فيها؟

هز قائد الكتيبة رأسه معجباً بحارس الدولة، وبينما هم كذلك إذا بصوت عالي النبرة يخرج من بين البيوت ينادي:

ـ أذكر ربك يا مؤمن .... لا إله إلا الله .... لا إله إلا الله..

لفت الصوت والنداء قائد الكتيبة فقال لحارس الدولة مستفهماً:

ـ ما هذا؟

ـ هذا سعيد الدرويش رجل صوفي وعم القاتل دحمان الدرويش.

وما هي إلا لحظات قصيرة حتى برز من بين البيوت الطينية الشيخ سعيد الدرويش يتوكأ على عصاه حافياً واقترب من الجمع وهو ينادي:

ـ أذكر ربك يامؤمن.. لا إله إلا الله ... لا إله إلا الله ....

وأخذ سعيد الدرويش يحملق في وجوه الواقفين والفرسان ونظر إلى الجثة الملقاة على الأرض فاقترب منها يتفحصها وصاح حين تعرف عليها:

ـ سعد.. خطيب ابنتي.. سعد.. لا إله إلا الله ...لا إله إلا الله..

وانكب على الجثة يقلبها ويمسح بيديه عليها ثم وقف مزمجراً: .

ـ من قتل سعد؟ من قتل سعد؟

فلم يرد عليه أحد.. فتوجه إلى الفرسان متوعداً:

ـ لماذا قتلتم سعد؟ ماذا عمل لكم سعد؟

جذبه حارس الدولة إليه وأخذ بمجامع صدره ينبهه قائلاً:

ـ ياعم سعيد استهدي بالله.. من قتل سعد هو ابن أخيك دحمان.

ـ دحمان ابن أخي؟ ... دحمان.. قتل سعد خطيب ابنتي؟

خر الشيخ سعيد الدرويش على ركبتيه وجثى، وهو يحوقل:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله .... لا حول ولا قوة إلا بالله..

وجه قائد الكتيبة بأخذ المقتول إلى بيته لتغسيله وتجهيزه، وكلف أحد جنوده المرافقين له بإخبار الأمير ناجي بن قملا، بخلو القرية من المحاربين وبما رأى من مصدر صوت الرصاص وحكاية القتل، فانطلق الفارس إلى الأمير ناجي بن قملا ليخبره ويستقدمه للدخول إلى قلب شكلنزة.

ـ 2 ـ

تحرك الجيش السعودي بعد تلقي الأمير ناجي بن قملا رسالة قائد كتيبة الفرسان، فدخل إلى قرية شكلنزة من الاتجاهات الثلاث، الشمالية وكان هو على رأسها والغربية بقيادة (محمد بن فارس) والشرقية بقيادة (سطام النجدي)، ورأى من في المزارع من مزارعين وفلاحين جحافل الجيش تدخل من كل أتجاه إلى القرية فهرعوا تاركين مزارعهم ومعاملهم إلى بيوتهم لتفقد أسرهم وحاراتهم، وكان في مقدمة من هرع إلى سوق القرية وساحتها (مقدم البلاد) المقدم (مبارك عبدان) يستطلع الأمر، وأوصى إلى مقادمة الحارات الثلاث في شكلنزة اللحاق به، فلحقه المقدم (سالم بامؤمن) مقدم حارة (السوق) ولحق بهم المقدم (صالح دعيس) مقدم حارة (الخورية) والمقدم (حمد باحجاج) مقدم حارة (البابطين)، وكان الأربعة في حيرة مما يرونه من اقتحام هذه القوة الحربية الكبيرة قريتهم فهم لم يروا مثلها من قبل، فالقادمون غريبوا الأشكال وفي هيئاتهم

ملامح الصحراء بشدتها وقسوتها، فتسائلوا في مابينهم عن هؤلاء الغرباء ماذا يريدون وإلى أين يقصدون، ومن هم؟، وما هدفهم؟، وتوجهوا باسألتهم هذه إلى حارس الدولة (نصر ياقوت) لعله يكون لديه علم ومعرفة عن أمر هؤلاء، فبادره المقدم عبدان قائلاً:

ـ من هؤلاء يا نصر؟ جيش من هذا؟

قال نصر وقد التحم بالمقادمة وهو يشير إلى فرقة الفرسان:

ـ هؤلاء الفرسان أول من وصل ساحة السوق بعد سماعهم صوت البندقية وإطلاق الرصاص.

قال المقدم عبدان:

ـ ومن أطلق الرصاص؟ نحن سمعنا صوت الرصاص فقلنا ربما أحدهم يرمي هدف أو يجرب بندقيته؟

قال نصر ياقوت موجهاً عتابه للمقدم عبدان:

ـ كان ينبغي أن تأتوا سريعاً لتتأكدوا من مصدر الإطلاق أو ترسلوا من يأتيكم بخبره، أما تصموا آذانكم فهذا سوء تقدير منكم..

تدخل المقدم (سالم بامؤمن) قائلاً:

ـ أنا لم أسمع صوت الرصاص يا نصر.. ومهما كان هذا ليس وقت العتاب.. وأخبرنا بما صار.. وعن هؤلاء الغرباء..

قال نصر بعد أن هزَّ رأسه موافقاً:

ـ من أطلق الرصاص هو دحمان الدرويش وقتل سعد بن سعد أخذناه إلى بيته لتغسيله وتكفينه، وأنا لما سمعت صوت الرصاص أسرعت إلى الساحة فوجدت سعد مضرجاً بدمه وبمقربة منه نسوة ينتحبن وحين سألتهن من فعل هذا قلن لي (قتله دحمان الدرويش وفر هارباً).. وتجمع الناس حول الجثة وعلى غفلة منا سمعنا صهيل الخيول في الساحة فالتفتنا فوجدنا هذه الكتيبة من الفرسان وكان بيننا وبينهم حديث عن معرفة المقتول والقاتل، وأمر قائد الكتيبة بنقل سعد إلى بيته فنقلناه، وها نحن نرى معكم هذه الجحافل تدخل القرية ولا نعلم جهتهم..

قال عبدان:

ـ ألا تعلم من أين هم قادمون؟

ـ نعم.. تحادثت مع أحد الفرسان ونحن نسقيهم الماء، فقال إنهم أهل الدعوة قادمون من نجد ديرة المسلمين.

ـ وهل أرسلت للأمير ناجي بن علي تخبره بمقدمهم؟

ـ لا لم أتمكن ولكن سأفعل بعد أن أرى توقف حركة الجيش ووجهتهم.

ـ وجهتهم يا نصر؟ وهل للغزاة الطامعين وجهة غير الشحر.

قال هذا المقدم عبدان في غضب موبخاً نصر، ثم وجه المجموعة قائلاً لهم:

ـ أسمعوني.. علينا أن نتقاسم المهام بيننا ونتوافى بالأخبار حتى نكون على علم بما حولنا وفي بلدتنا.. على المقدم سالم التوجه إلى بيت آل بن سعد ويواسيهم ويساعدهم في تجهيز ميتهم ويتفقد الحارة ويقف يطمئن أهلها.

وعلى المقدم صالح دعيس يطوف بحارتي الخورية والبابطين ويضع بعض الشباب للحراسة عليها ومراقبة الحركة والتواصل معنا إذا هناك أمر مريب.

وعليك يا حارس الدولة نصر إعلام الأمير ناجي بن علي بن بريك أمير الشحر وترسل من يتتبع القاتل دحمان الدرويش ويلقوا القبض عليه.

أما أنا ومعي المقدم حمد باحجاج سوف نقابل قائد الجيش ونجلس معه ونسمع منه.

وافق المقادمة على توجيهات مقدم البلاد مبارك عبدان وتوجهوا كلٌّ في انجاز مهامه، وتوجه هو والمقدم حمد باحجاج لملاقاة قائد الجيش القادم إلى شكلنزة.

ـ 3 ـ

على التلة الشرقية المطلة على قرية شكلنزة نصب الأمير ناجي بن قملا خيمته ونشر جيشه على تخوم القرية ومداخلها، وفي خيمته الكبرى التي أعدت لإدارة الجيش وأستقبال الضيوف فيها تفقد الأمير إتمام كمال تجهيزها وبالذات فرشها ومساندها، وحين رأى تمامها جلس على مقعده المعد له وإتكى على مسنده الأيسر ليريح جسده قليلاً من مشقة السير وتعب الطريق، وأمر خادمه بإحضار كوب من الماء وأمر طابخ القهوة بعملها وتقديمها له، ثم نادى حاجبه فلباه قائلاً:

ـ أمرك سيدي..

ـ من بالباب أيها الحاجب؟

ـ بالباب يا سيدي سعود العتيبي قائد كتيبة الفرسان ورجلان من أهل القرية..

ـ نعم... أدخل عليَّ سعود أولاً..

هز الحاجب رأسه وانحنى برقبته امتثالاً لأمر سيده واتجه لباب الخيمة وأذن لقائد كتيبة الفرسان سعود بالدخول، فدخل مسلماً على الأمير، فرد الأمير السلام وأشار عليه بالجلوس إلى جانبه الأيسر فجلس سعود، فخاطبه الأمير قائلاً:

ـ كيف ترى يا سعود بنزولنا على هذه القرية؟

ـ نزول مبارك إن شاء الله يا سيدي..

ـ إن شاء الله.. ولكن أخبرني عن هذه القرية وأهمية موقعها؟

ـ أعرف يا سيدي أن هذه القرية محط القوافل القادمة من الشحر إلى داخل حضرموت وهي ملتقى طرق تتوسط الأرض الساحلية في حضرموت، ولا أعرف الكثير عنها ولكن ببابكم يا سيدي كبير أهل القرية ومعه أحد مقادمتها فإن أذنت لهم بالجلوس اليك لأخبروك بالمزيد عنها؟

ـ نعم أريد أن أعرف منهما ذلك فليدخلوا..

أدخل الحاجب المقدم عبدان والمقدم حمد باحجاج إلى الأمير ناجي بن قملا، فامتثلا بين يديه والقيا التحية والسلام، فرحب بهما الأمير وأذن لهما بالجلوس إلى جوار القائد سعود فجلسا شاخصة أبصارهما إلى الأمير يتفحصان سنحتهِ ويستنطقان ملامح وجهه، وبادلهما الأمير ذلك وتعرف على أسميهما ومكانتهما وعملهما فقال مخاطباً المقدم عبدان:

ـ يا عبدان ما إسم قريتكم هذه؟

ـ إسمها شكلنزة يا سيدي..

ـ شكلنزة.. ماذا يعني هذا الأسم.. أعربي هو أم أعجمي؟

ـ هو عربي مركب ويعني الشكل النزه..

ـ الشكل النزه.. الشكل النزه... لا.. لا.. لا يستسيغ ذلك.. فلو قيل الشكل الحسن أو الشكل الجميل أو الشكل الرائق لكان أسلم، أما الشكل النزه فليس هذا معناه.

ـ هذا ماعلمناه يا سيدي والله أعلم..

ـ أحسنت يا عبدان.. ولكن صف لي قريتكم هذه وعرفني عليها؟

ـ أمرك يا سيدي.. قريتنا هذه بها ثلاث حارات سكنية هي حارة السوق وهي قلب شكلنزة ومقدمها سالم بامؤمن وحارة البابطين ومقدمها هذا أخي حمد باحجاج والحارة الخورية ومقدمها صالح دعيس وفيها يا سيدي أربعة عشر مزرعة أكبرها مزرعة آل البابطين ومزارع آل إبن إسماعيل ومزرعة آل بريك أمراء الشحر وبقية المزارع متفاوتة في المساحات ومتقاربة، وتسقى هذه المزارع من عينين ناضختين بالوادي وتوزع السقيا على المزارع بالزامات، ومحاصيل المزارع كثيرة من التمر والنارجيل والباباي وجميع الخضروات والبرسيم.

ـ وأين أصحاب هذه المزارع؟

ـ جل أصحابها من كبار القوم وهم يقطنون الشحر ولهم هذه البيوت الكبيرة هنا في شكلنزة يأتون إليها في فصل الخريف فقط، أما بعض الحقول الصغيرة فأصحابها قاطنون هنا فأنا لي مزرعة أعمل فيها وأخي حمد باحجاج لديه حقل صغير أيضاً يعمل فيه.

ـ وفي سوقكم من يعمل؟

ـ سوقنا ليست كسوق المدينة وانما نطلق على هذا المكان السوق لوجود بعض الباعة فيها، ففيها يؤتى بالسمك من مدينة الشحر ويباع هنا للأهالي وهناك حانوت وأحد يبيع الأرز والدقيق والسكر والسمن والملح وبعض الأشياء الخفيفة، أما أصحاب البساط الأخرى فهم يبيعون البصل والثوم والطماطم والبرسيم.

ـ وكم مسجد في قريتكم؟

ـ هو مسجد وأحد هذا الذي تراه من هنا.. هو مسجد الزاهر.

ـ ثلاث حارات ومسجد وأحد.. ألا تصلون في حاراتكم؟

ـ بلى يا سيدي هذا المسجد هو الجامع لأهل القرية ونصلي فيه الجمعة أما في الحارات هناك في كل حارة مصلى تقام فيه الصلوات لأهل الحارة

ومن كان قريباً للمسجد يصلي في المسجد إلا الجمعة فجميعنا نصلي في المسجد.

ـ وهل هذا المصلى بديلٌ عن المسجد؟

ـ لا ليس بديلاً عن المسجد وإنما هو مكان للصلاة وهو في ساحة متوسطة، يحاط مكان الصلاة فيها ويحدد بالحجارة المرصوصة بجانب بعضها البعض ويعمل في مقدمة المصلى عرشة من جريد النخل ليستظل به المصلين في صلاة الظهر، ولا توجد به مواضي للمصلين فالوضوء في بيوتهم أو من برك الماء القريبة.

تبسم الأمير ناجي مما سمع وأطرق برأسه إلى الأرض، مما شجع عبدان في سؤاله قائلاً:

ـ وأنتم يا سيدي ما وجهتكم وما مقصدكم؟

نظر الأمير إلى عبدان متفحصاً وهز رأسه مجاوباً لعبدان:

ـ نحن أتينا إلى حضرموت لإزالة مظاهر الشرك ونشر الدعوة وتصحيح عقائد المسلمين، وقد كنا في تريم أزلنا الكثير من القبب والأضرحة التي يتبرك بها العوام ويقدسونها، وأنتم هنا هل لديكم قبب وأضرحة مجصصة؟

ـ لا يا سيدي لا توجد قبب غير قبب المسجد التسع هذه، ولا يوجد بالمقبرة قبور مجصَّصة.

ـ حسناً.. ولكن هذا الصوفي بينكم ما يعمل؟

ـ تقصد الشيخ سعيد الدرويش؟

ـ نعم هو.. أليس هذا صوفياً؟

ـ نعم هذا مالقبه به السيد عبدالله العلوي حين جاء إلى شكلنزة داعياً ومعلماً.

ـ هذا ما سننظر فيه فيما بعد.. وسنبقيه عندنا حتى يحضر ابن أخيه دحمان بنفسه... أما أنت يا عبدان فأخبر أهل شكلنزة بأن إذا نودي للصلاة عليهم ترك أعمالهم وعليهم السعي للمسجد للصلاة.. ومن يتخلف سوف يعرض نفسه للعقوبة بالجلد أمام الناس..

قال هذا الأمير ناجي بن قملا وصرف ضيوفه وأمر كاتبه ليكتب رسالة للأمير ناجي بن علي بن بريك أملاه إياها، وأخذها رسوله الفارس (محمد بن فارس) وانطلق بها إلى الشحر.

_ 4 _

ماذا حل بهذا الصباح؟ أين بهجته؟ أين سكينته؟ كأنه العدم حل بهذا القرية!!، حتى العصافير هجرت شجرتها المغروسة في فناء الدار فلا تسمع لها صوت وزقزقة؟، كان هذا الإحساس الذي يعصف في نفس عذراء الدرويش، وهي كعادتها الدائمة لم يتغير منها شيء، فما أن تصلي الفجر وتقراء جزء من القرآن وتقراء أورادها الصباحية حتى تنهض إلى حوش الدار (الدرع) فتجد أمها قد سبقتها إليه وهي تعد حطب التنور وتجهزه، وتحلب الشاة لتغلي لبنها، أما عذراء فتأتي إلى الرحى وتطحن الطعام حتى يتحول دقيقاً فتعجنه وتقرصه وتخبزه، ثم تأتي على بقية أعمال المطبخ التي تركتها لها أمها لتكون من مهامها، فما أجمل صباحها الملئ بالحيوية والنشاط، إلا أن ثقلاً غير معتاد في هذا الصباح يتسلل إلى داخلها، فتشعر به يوهن قواها، فتشغل نفسها بالذكر والحولقة، وحين أنتهت من أعمال المطبخ أخذت أقراص الخبز إلى سفرتها الخوصية

(المسرفة) وغطته بأخرى ووضعته في غرفة الدار المستطيلة (الضيقة) وهي الغرفة التي تلي مدخل مقدمة الدار، فتضع كعادتها الخبز وإدام الخبز في ركن الغرفة في أنتظار مقدم أبيها الذي يخرج لصلاة الفجر ويبقى خارجاً إلى أن يتقدم النهار فيأتي إلى داره ليتناول فطوره مع زوجته وأبنتهم عذراء، ولكن ذلك اليوم لم يأتي سعيد الدرويش كعادته وتأخر عن قدومه المعتاد، وبدأ قلق عذراء على أبيها فيكاد الضحى أن يأتي ولم يأتي أبيها، وهي تترقب وتسمع وراعها الضجيج المبهم الذي يأتيها من اطراف القرية، ولم تعلم مايدور خارج بيتها، وكانت تحاور أمها في شأن تأخر أبيها فتطمنها أمها بأن أبيها يفعل ذلك أحياناً وربما غلبه النعاس في المسجد فنام، ولم يفض بكارة ذلك السكون الموحش إلا طرق بابهم ونداء صديقتها شهباء من خلف الباب: (عذراء.. عذراء... أفتحي...).

أسرعت عذراء وفتحت الباب فإذا بالباب صديقتها شهباء ومعها جارتيها حليمة وبركة، فسارعت شهباء في معانقة عذراء واجهشت بالبكاء وشعرت أم عذراء بمايدور في فناء الدار فهرعت فزعة فوجدت جارتيها حليمة وبركة ومعهما شهباء صديقة عذراء وقد أعتنقتها وهي تنتحب، فراع هذا المشهد أم عذراء فبادرت إلى جارتها بركة تسألها في قلق:

ـ ماذا هناك يابركة؟ ماذا حصل؟.. هل جرى شيء لزوجي سعيد؟

أخذت بركة بيد أم عذراء وأشارت لحليمة بأن تقود عذراء وشهباء إلى داخل الغرفة وهي تقول:

ـ لا ... زوجك سعيد بخير والحمد لله..

ـ الحمد لله.. بس ما الذي أتي بكم، أخبرونا؟

أجلست بركة أم عذراء وأجلست حليمة عذراء وشهباء وهي تقول لهم:

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون.. تشاجر ابن عمكم دحمان مع خطيب عذراء سعد..

أجحظت عيني عذراء وهي تنظر إلى بركة وتنتظر ما تتفوه به، أما أمها فقد سيطر عليها القلق وكادت ترتجف وهي تقول:

ـ وماذا حدث يا بركة؟

ـ أطلق دحمان على سعد الرصاص.... فقتله..

خرت قوى أم عذراء فاستلقت مستسلمة لخورها، أما عذراء فهاجت وتشنجت وفقدت الوعي مغشياً عليها، فهرعن النساء الثلاث لاسعافها وافاقتها بتشميمها البصل ورش الماء على وجهها، وما زالوا بها حتى افاقت من غيبوبتها، فاحتضنوها وزينوا لها الامتثال لأمر الله والرضاء

بما قدره فاسترجعت وسلمت ثم انزوت إلى زاوية الغرفة مقرفصة لا ترد على أحد كلاماً ولاذت بالصمت، بينما غادرت حليمة وبركة دار الدرويش وبقت شهباء مواسية ومعاونة لعذراء وأمها، وبقت عذراء شاخصة ببصرها وكأنها تناجي المجهول، فقد كان يدور بفكرها ويورد على خاطرها خطيبها سعد وحكاية حبها معه منذ الصباء.

كان سعد فتى بهي الطلعة حسين المنظر أنيق الملبس هادي الطبع لا تغلب عليه شقاوة الصبيان وعبثهم، وكان ودوداً في تعامله مع أقرانه وأطفال حارته ولهذا صار محبوباً حتى من معلمه في المعلامة الوحيدة في القرية وكانت تجمع الأطفال ذكوراً وأناثاً فيتعلمون القاعدة البغدادية ويحفظون جزء عم وتبارك عن ظهر قلب، ويدرسون في الفقه المقدمة الحضرمية وسفينة النجاة، ونشأت عذراء في تلك المعلامة بجوار سعد وإن كان يكبرها بحوالي ثلاث سنوات إلا أن الميل لكل منهما نحو الآخر شديد وربما كان لقرب سعد من عذراء كونهم في حارة وأحدة وبيتيهما غير متباعدين وتربط أسرتيهما العلاقات الحميمية السائدة في مجتمع شكلنزة، فكان ميل كل وأحد منهما طبيعياً وبريئاً نحو الآخر، وكان هذا الميل مطمع لكل الأولاد والبنات، فقد امتاز سعد بخلقه وحسن أدبه، وامتازت عذراء بجمالها ورقة طبعها، وحين كبرت عذراء وظهرت عليها علامات البلوغ حجبها أهلها وأقعدوها البيت ونقلوها من مرحلة الطفولة إلى مرحلة الشباب مثلها مثل بنات قريتها وعلى عوائدها، وتهيئت عذراء للمرحلة

الجديدة وبدأت في قطع علائقها بعالمها الطفولي السابق مقتدية بمن سبقها ومن في سنها من بنات القرية، إلا أن الحنين لم يفارقها عن تعلقها بصداقة سعد وعشرته الطفولية ولم تفلح في جعل ذلك من ذكريات الطفولة التي انقضت، فكانت كلما سمعت صوت سعد في زقاق الحارة مع شباب الحارة يتمازحون بأصواتهم المرتفعة تسارع هي للصعود إلى سطح المنزل لتنظر إلى سعد وتتملى بمرآه.

وكان سعد يتعمد ذلك الفعل فهو مثل عذراء لم يفارقه حنينه إليها وإلى زمالتها في أيام صباها، فيتحين الفرص للمرور بزقاق بيتهم والمكوث فيه وإحداث جلبة تلفت انتباه عذراء، وقد سُرَّ سروراً بالغاً حين رآها تناظره من على سطح منزلها، وعاود هذا الحال مرات متكررة يكتفي فيها بالنظر إليها وهي على سطح منزلها تسارقه النظر، إلى أن أتى يوم تجاسر فيها سعد فلوح لها بيده مسلماً فبادلته الأشارة واختبأت متوارية، وكان بيت عم عذراء بجوار بيتهم وكان إبن عمها دحمان يقارب سن سعد فأتخذه سعد صديقاً ليواري تردده على زقاق بيت عذراء، ولينادي على دحمان من ذلك الزقاق لتعلم عذراء بوجوده فتناظره من على السطح، وتجرء سعد فكتب رسالة يبث فيها حبه لعذراء، فحين طلت من على السطح وضع لها الرسالة في شق الجدار وأشار إليها بأنها لها وبأن تأخذها، ومضى يومها سعد وخرجت عذراء تستأذن أمها للذهاب إلى صديقتها شهباء وفي الزقاق اقتربت من الشق الموجود في الجدار حيث وضع لها

سعد الرسالة فأخذتها وواصلت طريقها إلى بيت شهباء، فجلست معها لحظات وهي تتحرق شوقاً لإخراج رسالة سعد ومعرفة مابها، ولم تطل المكوث عند شهباء كعادتها فاستأذنت متعللة بعمل بيتها ومساعدة أمها، وهرعت خارجة إلى بيتها، وولجت غرفتها ونزعت الرسالة من مخبئها وقرأت فيها (عذراء أشتقت إليك.. إني أحبك).

كانت عذراء تتهجا هذه الحروف وكأنها تخرج من بين شفتي سعد، سعد الذي خبرته وعرفته وحفظت حركاته وسكناته فهو الآن يتمثل لها في رسالة شاخصاً أمامها، قرأت الرسالة مرة وأثنتان وثلاث، وحين أحست بحركة أمها في البيت خبأت الرسالة في طي ملابسها، بعد أن طبعت حروفها في قلبها وأشعلت فيه جذوة الإحساس الغريب الذي لم تعرفه من قبل، رددت كلمات الرسالة بشفتيها وانزوت إلى فراشها تستذكر معرفتها بسعد وزمالته لها في الكتاب (المعلامة) ومعاملته معها واهتمامه بها، ومازال شريط الذكريات يتكرر على تفكيرها ويختلج في وجدانها، إلى أن أقبلت عليها أمها معاتبة :

ـ عذراء ما بكِ.. مستلقية على فراشك وتاركة عمل البيت علي؟ هيا أنهضي؟

نهضت عذراء وهي تعلل لأمها سبب ارتخائها بشعورها بتعب قليل أخذت من أجله قسطاً من الراحة.

بقيت علاقة الحب تكبر بين عذراء وسعد يوماً بعد يوم، بما فيها من لقاءات عابرة وأحاديث مستعجلة ووعود لم يطل أمدها فقد كان والد سعد ميسور الحال صاحب مزرعة لاباس بها بين مزارع شكلنزة، فتكفل بتكاليف زواج أبنه الوحيد سعد وتقدم لخطبة عذراء لأبنه سعد من أبيها سعيد الدرويش، وكان يومها فرح عذراء كبير وسرورها بالغ فهاهو حلم حياتها يقرع الأبواب ويتحقق وليضمها بيت وأحد مع من أحبته وأخلصت حبها له، ولكن أبن عمها دحمان كان أيضاً معجباً بها ويكن لها شغفاً وحباً لم يتجاسر على البوح به، فحين علم بخطبة صديقه سعد لأبنة عمه عذراء هاج وماج وحنق على سعد وتوعده بأن يترك خطبته لعذراء فهي أبنة عمه وهو أحق بها، ويوبخ سعد باستغلال صداقته له من أجل القرب من عذراء، فهو يعلم زمالتهما أيام الصبا في كتاب القرية، ولكن ما كان متوقعاً بأن يمتد أثر هذه الزمالة إلى سن البلوغ، فكان دحمان كثير الشجار مع سعد وكان سعد يلاطفه دائماً وتودد إليه بأن المكتوب هو الذي يقدره الله وليس لنا حيلة في ذلك، إلى أن أتى ذلك اليوم المشؤم وقتل سعد بطلقة من بندق دحمان.

اجهشت عذراء بالبكاء الموجع وقد أنكسر قلبها الواله ونزف بآلآم كبيرة وهي تسترجع ذكرياتها مع سعد وتقيم حبه لها، وسارعت شهباء في احتضانها والتربيت عليها لتسكينها، وأوصتها بالصبر على المقدَّر والأمتثال لقضاء الله.

وبينما هم على هذه الحال من بكاء وتوجع وأنين، طرق الباب عليهم بشدة ونداء من خارج الدار (افتحوا السدة.. افتحوا السدة)، هرعت شهباء وفتحت الباب فإذا هي سعيدة أخت سعد الصغرى مندفعة تريد الدخول وهي تقول:

ـ أين عذراء أين عذراء ...؟

قبضتها شهباء وهي تقول لها بحزم:

ـ ماذا تريدين من عذراء يا سعيدة؟.. لا ذنب لعذراء في قتل أخيك..

قالت سعيدة وبريق من الفرح يكاد يقفز من عينيها:

ـ أخي سعد...أخي سعد لم يمت.. أخي حي يا شهباء..

أمتزج شعور الفرح وخالط فؤاد شهباء فعانقت سعيدة عناقاً حاراً وأخذتها تهشل إلى داخل الدار، وقد تنامى صوتيهما ومحادثتهما إلى سمع عذراء وأمها داخل الدار فوقفت عذراء وهي ترتجف ارتجافاً شديداً لغرابة أن يعود خطيبها المقتول إلى الحياة مرة أخرى وقفت على حالها لا تقوى على شيء، فتقدمت إليها سعيدة واحتضنتها وهي تهمس لها في أذنها:

ـ ربك لطف يا عذراء ربك لطف.. لم يمت سعد وإنما أصيب بجرح سوف يبرى منه ويتعافى بأذن الله.. وهو أرسلني إليك لأطمئنك.

أجهشت عذراء بالبكاء مرة أخرى ولكنه بكاء الفرح والنجاة لخطيبها سعد، فاجلستها شهباء واجلست سعيدة وهي تقول لها:

ـ طمنينا على سعد وما جرى له.. هيا يا سعيدة؟

جلسن النسوة جميعاً والتصقت سعيدة بعذراء وقد قبضت على كفيها قائلة:

ـ لما أحضر سعد إلى بيتنا وضعوه في الغرفة مسجى، وبعد لحظات أتى مقدم الحارة سالم بامؤمن ليرى الجثة، وحين تفحصها وجد أن أخي سعد في غيبوبة وأن نبض قلبه ما زال يعمل، فأخبرنا بذلك وطلب عرقاً من البصل ليفوق به سعد وطلب قطع قماش نظيفة ليوقف نزيف الدم، وأرسل لطبيب القرية فاتى وأخرج الرصاصة من صدر أخي، وبعدها بساعة أفاق أخي سعد من غيبوبته، هو الآن بخير ويتكلم وأول ما عرف ما حدث له سألني (كيف عذراء؟ أذهبي وطمنيها عليَّ) وها أنا يا عذراء جيتك ببشارة سلامة سعد ووصاته.

عانقت عذراء سعيدة وهي تنتحب وتذرف دموعها، وحثتها قائلة:

ـ هيا خذيني إليه لأراه.. هيا..

قالت هذا عذراء ونهضت لتلبس برقعها فامسكتها أمها قائلة لها:

ـ لا يجوز يا عذراء مازال سعد خطيبك.. ماذا سيقول الناس عنك.. ولكن انتظري أبيك الذي تأخر كثيراً ليذهب هو ليطمئن عليه.

لفت كلام أم عذراء أنتباه سعيدة، وعلمت أنهم لا يعلمون عن أبيهم سعيد ما تعلمه هي فقالت لهم:

ـ عمي سعيد.. مازال عند الأمير إبن قملا.. احتجزه لأنه عم دحمان.. ويطالبه بأحضار دحمان وتسليمه إليه.. هكذا قال لنا المقدم عبدان..

صدم قول سعيدة الإناث الثلاث عذراء وأمها وشهباء، فهم لا يعلمون ذلك فقد أخذ مصابهم في سعد كل مشاغلهم بل أن عذراء بذلك المصاب خرجت عن طور الوعي إلى حالة أنعدام الوزن والغيبوبة الحسية، ولكن أم عذراء كسرت حالة الذهول قائلة للبنات:

ـ الحمد لله مادام سعد حي فلا خوف على زوجي سعيد.. ولكن من هذا إبن قملا؟

قالت سعيدة:

ـ هو أمير الجيش النجدي الذي دخل شكلنزة صباح اليوم.

ـ وما حاجة هذا الجيش في شكلنزة؟

ـ ولا الله لا أعلم .. ولكن نظنه نزل بها للإستراحة ولانظنه يمكث كثيراً..

تقبلت عذراء قول أمها على مضض، ونهضت وأشارت لأخت سعد بالأنتظار وذهبت إلى خزانة حفظ المواد الغذائية وتناولت علبة فيها قرص من عسل النحل البلدي وأعطته سعيدة قائلة لها:

ـ أعطي هذا لسعد ففي العسل شفاء بإذن الله شفاه الله وعافاه وبلغيه سلامي..

أخذت سعيدة علبة قرص العسل وخرجت مسرعة إلى بيتها وتبعتها شهباء مستأذنة صديقتها فقد تأخرت عندها كثيراً على أهلها، وبقيت عذراء وأمها لم يستسغ لهن عمل شيئ ما، فاستلقت أم عذراء على حسيرة الغرفة متكئة على وسادة محشوة بالراء وهو برعم شجرة يحشوا به الوسائد والمساند، وتداعت عذراء إلى حضن أمها تنهل من حنانها في لحظة صمتت فيها الألسنة وتحدثت فيها المشاعر.

ـ ٥ ـ

ليلة كئيبة عاشتها عذراء وأمها، وعانت عذراء فيها من الألم مالم تعانيه من قبل، فأبيها سعيد لم يطلق سراحه الأمير إبن قملا ورغم توسط مقدم القرية له ومخاطبته أياه وإعلام الأمير إبن قملا بنجاة سعد من الموت واصابته بأصابة بليغة سيتعافى منها بإذن الله، ولكنه ابقاه لشيء ما في نفسه ولم يبدهِ لعبدان وإنما قال له:

ـ ننتظر إلى الغد ياعبدان..

وخطيبها سعد يئن جريحاً على فراشه وكأنها تسمع أنينه وتوجعه فلم يغمض لها جفن وباتت بين دموع ورجاء ودعاء وهي تتذكر سعد ونشأتها معه منذ طفولتها، كانا يلعبا معاً هي وصويحباتها ورفيقي سعد ابن عمها دحمان وجارهم عوض الشيخ، كان صغر سنهم لا يضع أمامهم حواجز للاختلاط، وبراءة طفولتهم واقية لهم من كل محذور، فكانوا يلعبون لعبة (فارت الكعدة) معاً، ولعبة (سدَّة مفتوحة وسدَّة مقلودة) ولعبة (ذيب ذيب الغنم) ولعبة (ديك وإلا دجاجه ومبارك عيايه) ولعبة (يا

البدوي تعل من طريق الجبل) وغيرها من الألعاب الممزوجة بالأهازيج والأناشيد، وحينما كبروا قليلاً ما.

انفصلت البنات عن الأولاد، فكانت البنات يلعبن منفردات لعبة (الحفيرة) ولعبة (التو) ولعبة (الحبل) وغيرها، أما الأولاد فانصرفوا للعبة (البوش) ولعبة (القلة) ولعبة (الطوبزح) وهذه من أهم ألعابهم، ورغم هذا الإنفصال بين الأولاد والبنات إلا أن اهتمام سعد بعذراء لم يتوقف وكانت عذراء تتقبل ذلك الأهتمام برضى ودلال وتبادله بعض هذا الإهتمام، وحين شبا عن الطوق وبلغن سن النضج احتجبت عذراء وصويحباتها وتبرقعن بالنقاب كسائر نساء القرية، ولا يخرجن إلا لجمع الحطب أو جلب الماء بالقُرب من بيوتهن وقليل منهن من ترعي الأغنام في وادي شكلنزة وشعابها، وكان سعد يترصد خروج عذراء لينظر إليها من على بعد في ذهابها وإيابها ولم يجرؤ على الإقتراب منها لمحادثتها إلى أن باح لها بحبه في رسالة إليها وكتبت له جواباً قالت فيه (وأنا أحبك أيضاً)،حينها تشجع سعد من الاقتراب منها في خلوتها في الطريق وبدأ يحادثها حتى توثقت علاقة الحب بينهما وكثرت المناجات واللقاءات اللطيفة السليمة فكانا يجدان في ذلك الحب سعادة غامرة وفرحة لا تسعها الدنيا ووسعتها قلوبهما المحبة، وكان أجمل يوميات ذلك الحب يوم خطبها سعد من أبيها وقبل به أبوها زوجاً لأبنته.

هنا ايقنت بأن حبها لسعد أثمر وأن سعد أخلص لذلك الحب فوهب لها حياته كما وهبت هي له حياتها، ولم يؤخر إتمام ذلك الفرح بالزواج إلا الإعداد له والتجهيز لمراسيمه،رغم توعد دحمان لهما بإبطال زواجهما وعدم اتمامه بدعوى أنه الأحق بابنة عمه عذراء من سعد الذي لا يمت إليها بصلة قرابة، ولكن صلة الحب أقوى فلم تثني سعد وعذراء وأهليهما عن إتمام الخطوبة والإعداد لزواجهما وإقامة مراسيمه، وها هو دحمان اليوم يعتدي على سعد بإطلاق الرصاص عليه ولولا لطف الله سبحانه وتعالى لكان سعد في عداد الموتى، ولكن دحمان ترك شرخاً كبيراً في حياتيهما وحياة عائلتيهما فكيف لهذا الشرخ أن يرتق، وما أثر ذلك على والد سعد وأمه؟ وعن ماذا ستفصح الأيام القادمة بعد تعافي سعد؟

كانت تلك الهواجس والذكريات والتساؤلات تجول وتصول في فكر عذراء وخاطرها، وينتج عن ذلك أنين ووجع لم ترَ مثله طيلة حياتها الآمنة الراغدة، ويشتد وجعها حين ترى بيتها يخلو من أبيها وأن أباها في سجن الغازي القادم إلى بلادها ويرفض اطلاق سراحه رغم توسط مقدم البلدة عبدان، وقد طلبت منه بأن يرافقها صباح الغد إلى الأمير ناجي بن قملا لتطلب منه اطلاق سراح أبيها، فوعدها عبدان بصحبتها ضحى اليوم التالي ففيه الأمير يتهيا لمقابلة قاصديه وزواره، وأخذت تقلب الأفكار فيما يمكن أن تقوله للأمير إبن قملا.. وكيف سيستقبلها؟..

إنها سمعت عن شدة بدو نجد وعن أتباع الإمام محمد بن عبدالوهاب وقوتهم في فرض تعاليمه وإنكارهم على عامة المسلمين السنيين في بعض سلوكهم ومظاهر لم تألفها البادية ولم تعرفها فأنكرتها أشد الإنكار، على أن الوهابية هم من أهل السنة وعلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، ويعرف عن الحنابلة تشددهم في الأحكام الفقهية، واستقر في نفس عذراء الدرويش بأن الدين أذا استخدم لطلب السلطة أباحوا له دعاته بما يثبت دعائمها وإن كان خروجاً عن إجماع أهل السنة، ولعل التفريط من قبل المسلمين في تطبيق التعاليم الإسلامية أتاح للغلاة الإفراط والتشديد.

كانت كل هذه الأفكار تجول في فكر عذراء فهي تقرأ معطيات الواقع الذي تعيشه وتعانيه، وما عسى يكون حال أبيها وهو يقبع في سجن إبن قملا لا لشيء إلا لكونه عم دحمان الذي اقترف فعلته الشنيعة بإطلاق النار على خطيب عذراء سعد بن سعد، ولولا لطف الله بسعد لكان هذه الليلة العصيبة مودعاً باطن الأرض ولكان حزن عذراء أشد قسوة وأكثر ألماً لما تعانيه حال هذه الساعة، هذا الشعور كان ينتابها حتى أشتد عليها التعب وبلغ منها الجهد مبلغه فاستسلمت في الهزع الأخير من الليل لنوم عميق.

ـ ٦ ـ

لم يكن صباح شكلنزة في اليوم الثاني لوصول الجيش السعودي إليها كعادته، فلم تسمع في وقت السحر تسبيحات الشيخ سعيد الدرويش، ولكن كانت جلبة جنود الجيش تتسرب إلى حارات شكلنزة الثلاث فاستيقظ من أراد أن يتهيأ لصلاة الفجر ويدرك من الليل ركعات يتهجد بها لحين أذان الفجر، فازدحم جامع الزاهر وانتشر القائمون في ساحات المسجد مبتهلين لله ويعبدونه، كان ذلك المنظر ذكر المقدم عبدان بليلة المبيت في مزدلفة، فزادت في قلبه جذوة الإيمان فأخذ سجادته الخوصية (شطفة) كما يسميها أهل الريف وافترشها في ساحة المسجد وأخذ يصلي ويتلو ما حفظه من قصار السور إلا أن من كان بجواره كان قارئاً عذب الصوت رخيمه وكان مجوداً للقرآن يتلوه بصوت مسموع شيئاً ما لعبدان فبرك على سجادته منصتاً خاشعاً لتلاوة ذلك الجندي وساحت عيناه بغزير الدمع وبقي على هذا الحال إلى أن أذن لصلاة الفجر، حينها

خرج الأمير ناجي بن قملا من خيمته وولج المسجد وأقام سنة الفجر ثم أقيمت الصلاة فأم بهم، وحين فرغوا قام خطيباً واعظاً لأهل شكلنزة وشاحذاً لهمم جنوده المرابطين معه، وما أن انتهى من خطبته إلا وشعاع الشمس بدأ يتسلل إلى أرض شكلنزة شيئاً فشيئاً فيكشف بهائها وجمالها وتداعب نسيمات هوائها العبقة أنوف من فيها فيزدادوا نشوة وسرورا، وحين خرج الأمير بن قملا من المسجد تعرض له المقدم مبارك عبدان مسلماً، فعرفه وخاطبه قائلا:

ـ مرحبا مبارك .. كيف أصبحتم؟

ـ الحمد لله سيدي الأمير أصبحنا في خير ونعمة.

ـ نعم الناس أنتم طيبين ومتدينين وتحبون الخير..

ـ هذا من حسن ظنكم فينا يا سيدي ونرجو من الله أن يثبتنا على الصلاح.

ـ هل لكم حاجة يا مبارك؟

ـ زاد الله فضلك يا سيدي.. ولكن عذراء إبنة الشيخ سعيد الدرويش تريد أن تأتي إليك معي هذا الصباح لتراجعك في حبس أبيها.

ـ أبيها ذلك الصوفي لا نعرف من أمره شيء ولكن سنستجوبه ونرى ما يعتقده ولنا معه بعد ذلك شأن، فلا تدعها تأتي.

رأى المقدم مبارك عبدان في وجه الأمير ناجي ذلك الإصرار والحزم والمهابة، فعقد لسانه واستيقن بأن لا فائدة في مخاطبة الأمير في أمر الشيخ الدرويش، فأراد أن ينصرف فأستاذنه في ذلك، إلا أن الأمير أصر على عبدان بأن يتناول فطوره معه في خيمته فاذعن المقدم مبارك وصحب الأمير إلى خيمته وفيها قدمت لهم القهوة النجدية ثم أتي لهم باقراص الخبز مع عسل السدر الحضرمي وحفنة من التمر في وعاء خوصي يقال له (المسرفة) فافرد عبدان يديه بعد أن بدأ الأمير مبسملاً مؤذناً لهم بالفطور وكانوا قادة الجيش وشيوخ الدعوة ممن كانوا بالخيمة وخلال الفطور كان الحديث دائراً وكان المقدم عبدان محور ذلك الحديث كل يسأله عما يبدر منه لمعرفة طبيعة أهل شكلنزة خاصة والحضارم عامة، وأمتدت هذه الأستفسارات والأسئلة بعد الفطور إلى وقت الضحى، عندها أستاذن عبدان الأمير ليقضي شئونه فأذن له، ومضى المقدم عبدان إلى دار الشيخ سعيد الدرويش ليخبر عذراء بأن الأمير ناجي منع حضورها إليه وأن أباها سيظل لديهم حتى ينظر في أمره، وحين تلقت عذراء كلام المقدم عبدان أصابها الذهول والخذلان،فكيف لهذا المقدم الذي تأملت فيه المناصرة والاستعانة أن يأتيها بهذا القرار الأميري المجحف، فاغلقت دونها الباب وأخذت الهواجس تجول في خواطرها واضطرب فيها الخوف على والدها بأن يصيبه أذى وتوجست قسوة ذلك الغازي الرابض على قريتها ويتحكم كأنه صاحب الأمر فيها، ولكنها أوقدت في نفسها عزيمة

المقاومة والمقارعة بالحجة والمجابهة، فأنتقبت وتجهزت للخروج وأخبرت أمها بعزمها فقالت لها أمها:

ـ سأذهب معك لن أتركك وحدك بين تلك الجند الكثير.

وحين خرجن من الدار وجدن شهباء في الخارج مع جارتهما بركة وحليمة فبادرتهما شهباء قائلة:

ـ ها.. إلى أين أنتن ذاهبات..إني أتيت لأراكن؟

قالت عذراء وقد خالطها الغضب:

ـ إلى هذا القملا الذي لا يريد بأن يطلق سراح أبي.

هاجن النسوة حينما قصت عليهم رواية المقدم عبدان وتخاذله، فرددن عليها بأنهن سيصحبنهن وتنادين في نساء الحارة فتجمعن قرابة أربعة عشر أنثى واصطحبن معهن أولادهن وأطفالهن وانطلقن إلى خيمة الأمير ناجي بن قملا، وبالقرب من الخيمة أوقف الجند جمع النساء وسألوهن ماذا يردن فأخبروهم بمقابلة الأمير ناجي، فأرسلوا إلى الأمير بذلك فخرج يستطلع الأمر فرأى النسوة وأطفالهن فرابه المنظر فأقترب منهن وتأملهن ثم خاطبهن:

ـ ماذا تردن يا نساء شكلنزة؟..

قالت عذراء في شيء من الحزم:

ـ نريد إطلاق سراح أبي الشيخ سعيد الدرويش حالاً..

ـ إذن أنت أبنته عذراء.. وأنت سبب مقتل الشاب سعد؟

ـ نعم أنا عذراء أبنة سعيد، وسعد خطيبي الحمد لله لم يمت ولكنه أصيب وإصابته ستشفى بإذن الله.

ـ وما يدريكِ بأنها ستشفى وهو طريح الفراش يصارع الموت.

ـ هذه مقادير الله يا سيدي الأمير.. ولكن أبي ما ذنبه في هذا؟

ـ أبيك عم المعتدي أولاً.. وصوفياً ثانياً.. فاذا تجاوزنا عن الأولى وكفله المقدم عبدان فلابد بأن يتوب من الثانية حتى نطلقه..

ـ يتوب من ماذا أيها الأمير؟

ـ من تصوفه..

ـ وهل سألت أبي عن صوفيته؟..

ـ لا لم أسأله، ولكن سنسمع منه اليوم ذلك؟

ـ ولكني أنا سألته وقلت له يا أبي ما معنى الصوفي هذا اللقب الذي ينادونك به؟، قال لي: معناه الرجل الصالح الزاهد في هذه الدنيا، لو

خيروه بين الحرير والصوف لأختار الصوف، هذا ما قاله ويعرفه عن الصوفية..

ـ لالا .. إنهم يقولون بعقائد باطلة .. هذا ما تحمله بواطنهم..

ـ وكيف لك على أن تحاسبه على ما في نفسه وأنت لا تعلم الغيب، ألا تحسن الظن بعباد الله أيها الأمير ؟

ـ بلى ..بلى .. وأرجو بأن يكون أبيك معافى من ذلك ..

ـ هو معافى إن شاء الله وأنا أبنته وأعرفه حق المعرفة هو شافعي المذهب من أهل السنة، وهو علمني بأن أقول بعد كل فريضة أن آتي بالذكر المروي عن النبي صلى الله عليه وسلم التسبيح والتحميد والتكبير والاستغفار وأن أقول بعدها أربعاً (أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير).. أليس في هذا شهادة له بتوحيده.. فأبي يردده في يومه عشرين مرة يتبراء بها من الشرك، فهل تفعل أنت مثله ذلك؟

ـ نعم إنهم يقولون ذلك عقب كل صلاة بصوت مسموع، ولم يرد ذلك عن الرسول صلى الله عليه وسلم في عهده واستحدثوه أهل البدعة يشوشون على المصلين.

ـ إذا كنت أنت صحابي لصدقتك.. لكنك تلقيت مثلما تلقى غيرك.. وغيركم تلقى بأن صوت الاستغفار عقب الصلاة كان يسمع من خارج مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن قال لك أنه يشوش على المصلين.. فقل له لا توبخ المستغفرين ولكن وبخ المتأخرين عن صلاة الجماعة..

ـ ليس هنا مكان نقاش فللعلم أهله.. وأكراماً لحضوركن سوف أخلي سبيل أبيك ولكن أخبريه بأن يلقاني بعد صلاة المغرب في المسجد لأجلس وأسمع منه.

قال الأمير هذا في حزم وأمر جنوده بأطلاق الشيخ سعيد الدرويش، اثنن النسوة على الأمير وشكرن له استجابته، والتحق بهن الشيخ سعيد بين زوجته وأبنته وخلفهم النسوة والأطفال راجعين إلى حارتهم، تحفهم بهجة الأنتصار بالإفراج عن شيخ شكلنزة وتغمرهم السعادة.

-٧-

عندما خلى الأمير ناجي بن قملا بنفسه في خيمته كان حديث وكلام عذراء الدرويش يجول في خاطره وقد أحدث في تفكيره تغييراً يشعر به وأثار في نفسه تساؤلات عديدة يبحث عن أجوبة لها، ما بال حاله قد تغير عما هو معتاد، كان يردد دون أن يشعر (آه يا عذراء شكلنزة.. آه يا عذراء شكلنزة) ثم يخالطه شعورٌ آخر فيسأل نفسه: أهو قناعة فكرية أم ميل عاطفي نحو تلك العذراء ذات العيون السود الواسعة والصوت الرخيم؟

ـ ويحك يا أمير الجند.. ويحك ياقائد الدعوة.. ما هذا؟

ولم يقطع تفكيره إلا صوت حاجبه الذي يستأذن لشيوخ الدعوة الثلاثة بالدخول فأذن لهم، وأقبلوا عليه مسلمين واتخذوا مقاعدهم في

المجلس، وصب لهم الحاجب القهوة فارتشفوها، وتنحنح وتهيأ الأمير للحديث فقال:

- الحمد لله أن وصلنا إلى ساحل حضرموت بيسر وسهولة وذلك من توفيق الله وتيسيره، وها نحن اليوم في قرية شكلنزة وهي تتوسط الشريط الساحلي لحضرموت وكل القرى من حواليها شرقاً وغربا، وهو المكان الذي نستطيع من خلاله الاتصال بكل مدن ساحل حضرموت دون عناء، وهدفنا الأول نشر دعوة التوحيد وإزالة مظاهر الشرك ومحاربة البدع، لهذا سوف ارسلكم لتلك المدن والقرى المحيطة بنا، كل نفر منكم سوف يصحبه أربعة من رجالي فاقصدوا مساجدهم وحاضروا في مجالسهم وبصروهم بأمور دينهم، إلى هنا في الغرب توجد قرية الصداع وتليها بلدة غيل باوزير فليقصدها الشيخ عبد الله، وهنا جنوباً قرية تبالة وتليها مدينة الشحر عاصمة هذه الإمارة البريكية فليقصدها الشيخ عبد العزيز وإلى الشرق من مدينة الشحر بلدة الحامي وتليها بلدة الديس الشرقية فليقصدها الشيخ صالح، تهيئوا وسوف ازودكم بمرافقيكم وحاجاتكم.

تلقوا الشيوخ توجيهات الأمير ناجي، وتجاذبوا الحديث وقال الشيخ عبدالعزيز: ولكن نحتاج للجيش لهدم القباب وتسوية القبور النائفة مثلما فعلنا في تريم .

قال الأمير: هنا الأمر مختلف عن تريم وها أنتم دخلتم شكلنزة ولم تروا فيها قبة على ضريح ولا قبراً نائفاً، وقد نرى في المدن هذا ولكن هي قليلة ومعدودة ولا تتطلب منا جيشاً فيكفي أنصار الدعوة لإزالتها.

ـ ولكن نريد أن نمحي معالم الشرك والعياذ بالله..

ـ ليس هناك شرك بين أهل السنة وفي جزيرة العرب ولكن هناك مخالفات شرعية يجب إزالتها وتنبيه المسلمين منها والوقوع فيها وهذا يتأتى بالموعظة الحسنة.

ـ إذن لماذا أتينا نحن إلى هنا بجيش جرار إذا لم يكن هدفنا ذلك؟

ـ أتينا هنا لنشر تعاليم دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهذا جيش الدعوة معي لنخضع به العصاة إن وجدوا حتى يقدموا الطاعة لأمير المؤمنين الملك، وقد أرسلت بالأمس محمد بن فارس رسولاً لأمير هذه البلاد ناجي بن علي بن بريك وأسمه على أسمي وهذا من حسن الطالع وقد رجع محمد ومعه رسالة من أمير الشحر يرحب بمقدمنا ويفسح الطريق لنا لنشر دعوتنا، وسوف يأتيني اليوم مع وفد من أعيان الشحر لزيارتي، فكونوا معي هنا لتروه.

ولم يطل المقام بالأمير بن قملا ومشائخ الدعوة كثيراً، إذ دخل عليه أحد جنوده ليخبره بقدوم أمير الشحر ووجوده على مشارف القرية،

نهض الأمير إبن قملا ومعه قادة الكتائب ومشائخ الدعوة إلى خارج الخيمة لاستقباله، وكان استقبالاً حميمياً أزال مخاوف الجميع ونشر السكينة في النفوس، وفي داخل الخيمة بعد الترحيب والسؤال عن الأحوال وأحتسى القهوة، قال الأمير بن قملا:

ـ هذا جيشنا جيش دعاة لا جيش غزاة قدم لنشر تعاليم الإسلام الصحيحة وإزالة البدع ومحاربتها وارشاد الناس إلى طريق الهداية ويردع كل ضال.

قال أمير الشحر: نعم الجيش هو.. وهذا ما كنت أتمناه يا أخي ناجي وددت لو أن لي جيشاً مثلة لهداية الناس ومحو الجهل ونشر العلم والتفقه في الدين، وخصوصاً في المناطق النائية وبوادي حضرموت فهؤلاء لا يصلهم الدعاة إلا نادراً وهم لا يرسلون أولادهم لتلقي العلم.

قال إبن قملا: إذاً هذا تقصير منكم أخي الأمير ولا ينبغي للدعوة إلا أن تصل لكل مكان في بلاد العرب فهم أهل الأمانة فإن فرطوا فيها ضاع الدين.

قال أمير الشحر: هو كما قلت ولكن ضعف مواردنا لم يتح لنا الوصول إليهم في بواديهم وقراهم البعيدة، ولكن هناك رحلات لبعض الدعاة يأخذون فيها أيام معدودة ثم يعودون إلى مدنهم.

ـ لا لا.. هذا لايكفي.. إني قدمت بجيشي إلى هنا وسامكث أربعين يوماً حتى اتم مقاصد الرحلة.. وهؤلا شيوخ الدعوة سيتوجهون إلى المدن والقرى والبوادي للدعوة.

ـ على الرحب والسعة بهم نحن نريد منهم ذلك وعليهم أن يعرفوا بأن مذهبنا السني هو المذهب الشافعي وليس مذهبهم الحنبلي فالناس لديهم فهم للفقه الشافعي فلا يشغلوا الناس باختلاف المسائل الفقهية؟

ـ لا اعتبار للمذاهب فكلنا أهل السنة وأحمد تلميذ الشافعي، نحن أتينا لتصحيح العقائد ونشر عقيدة التوحيد.

ـ لا.. من هذه الناحية أطمئن أهل حضرموت على عقيدة صحيحة ولكن هناك بعض الجهلاء الذين يأتون بمخالفات شرعية لا يجوز أن يفعلها المسلم ولكن للجهل سطوته.

ـ ليس في حضرموت فقط حتى في الحجاز واليمن والعراق والشام، وإذا لم يسع ولاة الأمر في هذه البلدان في إزالة هذا الجهل فإنه سيستشري في المجتمعات حتى يصير دينا يتعبد به الناس.

ـ صدقت.. عدونا هو الجهل ومحاربته فرض عين على كل مسلم، وأنا اعاهدك على أن امضي في هذا السبيل في نشر الدعوة وإزالة الجهل.

ـ إذن نكتب معاهدة معكم على ذلك بأن:

١) إزالة كل القبب من على الأضرحة وتسويتها بالأرض.

٢) معاقبة كل من يتخلف عن الصلاة أو يقصر فيها.

٣) محاربة البدع والضلالات واستتابة مرتكبيها.

٤) ترك كل العادات التي لم تورد في السنة.

٥) القيام بأمور الدعوة وتحمل نفقاتها.

هل توافق على هذه المعاهدة ونمضيها معاً طاعة لله ورسوله؟

ـ نعم أخي ناجي أمضيها وأقوم عليها طاعة لله ورسوله.

رحب الأمير إبن قملا بموافقة أمير الشحر وأمر الشيخ عبدالعزيز بكتابة هذه المعاهدة من نسختين ووقع عليها الأمير ناجي بن علي بن بريك أمير الشحر والأمير ناجي بن محمد بن قملا بشهادة كلاً من مرافقي الطرفين.

-٨-

ما كاد الشيخ سعيد الدرويش يلج بيته مع زوجته وأبنتهما وأغلقوا الباب دونهما حتى سأل عن سعد وعن حاله وجرحه فاخبرته عذراء بكل تفاصيل الحادثة منذ اصابته ونقله لبيتهم وتفقد المقدم سالم بامؤمن لحاله وأخبارهم بحياة سعد واستفاقته له وتطبيبه، وهو طريح الفراش من أثر الرصاصة التي اصابته، وقالت أم عذراء:

ـ عليك أن تزوره وتواسيه قبل أن تبرد.. ولكن دعني أقدم لك شيء من الخبز لعلك لم تأكل؟

ـ لا لا لست بجائع فقد كان فطوري عند بن قملا خبز وتمر ولحم.. ولكن دعوني أتوضأ وأصلي الضحى ثم أنطلق لزيارة سعد.

قالت عذراء: الله ما أكرمهم في إكرام الضيف.. وما أضيق صدورهم في تحمل مخالفيهم يا أبي؟

ـ وكيف عرفتي ذلك ياعذراء؟

ـ عرفته بما وصلني من أخبارهم وعلومهم، وأكد لي ذلك حديث الأمير بن قملا معي..

ـ هم كذلك يا أبنتي أتباع الشيخ محمد بن عبدالوهاب الذي عرف بتشدده وتمرده وخروجه على شيوخه، والتطرف دائماً يأتي بما لا تحمد عقباه، فما كان ينبغي بأن يأتي إلى حضرموت وأهلها أهل السنة والجماعة بهذا الجيش الجرار لا لشيء وأنما ليهدم القبب ويساوي القبور النائفة، كان يكفيهم إرسال داعية متمكن ليقنع الناس بالحسنى والموعظة بما يرونه مخالفاً للشرع، ولكن آل سعود أرادوا تثبيت حكمهم وإظهار قوتهم فارسلوهم إلى أطراف الجزيرة العربية.

ـ أتخذ آل سعود هذه الدعوة لبسط سلطانهم؟

ـ نعم.. إن العرب لا تقوم إلا غيرة على الدين وحماس المتطرفين أفضل وقود لإقامة هذه السلطة، فما الذي يزيح دولة الخلافة العثمانية ويضعف قوتها إلا خلق هذا التطرف في مجابهتها وإزالتها وهذا ما سعت إليه الدول الكافرة في تغذيتها ودعمها سراً وخفية ومنهم الإنجليز.

ـ وهل يا أبي..

قاطعها أبوها قائلاً: عذراء ياعذراء.. أشغلتيني دعيني أصلي وانطلق لزيارة سعد أريد ان اطمئن عليه..

قال هذا سعيد الدرويش مبتسماً لابنته ونهض إلى حمام بيته، أما عذراء فركنت إلى غرفتها وذكر اسم سعد يرن في أذنيها فكادت تذوب شوقاً إليه، فودها لو تزوره مع أبيها لتنظره وتراه، ولكن عادات البلد لا تسمح لمثل هذه الزيارات وإن كان خطيبها، ولكنها ستصحب أمها لزيارة بيت سعد ومقابلة أمه لمواساتها في إصابة أبنها.

كان والد سعد هو من أستقبل الشيخ سعيد الدرويش فأدخله غرفة الإستقبال أما زوجته وأبنته عذراء فاتجهوا إلى غرفة الحريم كما يسموها وتفاجأت أم سعد بوجود عذراء وأمها فاحمر وجهها واستشاط غضباً وحنقا، رأت سعيدة غضب أمها، فهشت مرحبة بعذراء وأمها وبادلتهم التحية واجلستهن على حصيرة الغرفة، وتجاوبت معها عذراء وأمها، وقدرت أم عذراء زعل أم سعد وأعذرتها فلو كانت هي مكانها لفعلت أكثر من هذا، فقالت لأم سعد تواسيها في مصاب أبنها:

ـ ألف لا بأس على سعد يا أم سعد.. الحمد لله قدر ولطف..

قالت أم سعد وهي تغالب حنقها: ربنا يشفيه ويجازي المعتدي الأثيم ومن كان السبب.

ـ الأسباب مقدرة يا أم سعد ولا حيلة لأحد في دفعها..

ـ السبب هذه الخطوبة النحسة لو لم نخطبها لسعد لكان في خير وعافية، ولانعلم أين أبنكم المجرم دحمان، أحسن لنا أن نبعد عن شركم، إذا هي هكذا في الخطوبة فكيف سيكون في الزفاف.

ـ سعد أبني وما أصابه شق قلبي، ومصابك هو مصابي يا أم سعد..

ـ لا أنسوا سعد.. لا نريد له أن يموت والله يرزق عذراء بزوج أحسن منه.

كانت عذراء في ركن الغرفة تتجاذب الحديث مع سعيدة ولكن أذنيها صاغية لحديث أم سعد وتتابعها وتفعل فيها كلماتها مالا يفعله الطعن في أحشائها، فاجهشت بالبكاء رغماً عنها، وهي تتمتم: قبح الله دحمان.. قبح الله دحمان.

فما كان من سعيدة إلا أن احتضنتها وربتت عليها وخاطبتها مطمنة لها:

ـ الحمد لله سعد حي يرزق ويعافيه ربنا أن شاء الله.. أول ماصحى من غيبوبته ذكرك وأرسلني إليك لأطمئنك عنه.

نهضت أم عذراء وهي تقول: يا أم سعد ليس لنا علاقة بدحمان وأن كان عمه سعيد الدرويش فنحن في حالنا وهم في حالهم وما فعله

طيش شباب سوف يلاقي جزاءه إن شاء الله.. لا شيء عند الله ضائع.. اطمئني من عدل الله وكل نفس بما كسبت رهينة.

قالت هذا أم عذراء وأخذت أبنتها قافلة إلى بيتها وفي جوفها من الألم ما يعتصرها، وفي عذراء أضعاف ذلك مضاعفة، فكيف لها أن تشهد أنهيار أحلام حياتها في ممانعة أم سعد وخذلانها، وماذنبها هي فيما حدث، إن كان السبب الرئيسي هو حب سعد لها وغيرة دحمان عليها، فقلبها معلق بسعد حبيبها وخطيبها، وجنى دحمان عليها في محاولة قتل حبيبها فكيف يعاقب المجني عليه بفعل الجاني، ليس هذا عدلاً، وما عسى سعد أن يقول؟ وهل يعزف عن حبه، تلوك عذراء هذه الأحاسيس فتدخل في دوامة الحزن العميق وتقاوم انهمار دموعها خشية التأنيب والتقريع من أمها.

أما أبوها فأستقبله أبا سعد بفتور وامتعاض فلم يرد السلام حين بدأهم سعيد الدرويش بالسلام واكتفى بمصافحته والإشارة له بالترحيب، أما سعد فقد كان يقظاً حين دخل سعيد الدرويش وحين سلم عليهما رد سعد بصوت جهوري السلام وبش لمقدمه مرحباً، وبعدها إطمأن الشيخ سعيد على سعد ولاطفه ورأى جرحه وأستمع إليه، ونظر إلى والد سعد الذي مازال وجهه عابساً ولم ينطق، وجه نظره إليه وقال له مخاطباً :

ـ قدر ربك ولطف يا أبا سعد الحمد لله.. سعد خطيب ابنتي بمثابة ابني أما دحمان فأنا بري منه ومن دمه، فهو اعتدى عليَّ قبل أن يعتدي عليكم..

قاطعه أبو سعد في شيء من الضيق قائلاً:

ـ دحمان قطع الذي بيننا وبينكم ياسعيد، بعد ماسفكتوا يا آل الدرويش دمنا لا تعرفونا ولا نعرفكم..

ـ لا يا أبا سعد الذي بيننا وبينكم أكبر من آل الدرويش كلهم، ولا يمكنكم مؤاخذة أحد بجريرة غيره فكل نفس بما كسبت رهينه هكذا قال ربنا..

انزعج سعد من حديث أبيه لعمه سعيد الدرويش، فهذا ما لا يريده هو، فهو لن يتخلى عن حبه لعذراء والزواج منها، أما فعل دحمان فلن يسامحه وحين يلقى القبض عليه سيحاسب ويسجن، وأما عذراء فلن تكون لأحد غيره، فقال سعد وهو يغالب ألم جرحه:

ـ يا أبي الله يصلحك.. ما ذنب عمي سعيد فيما فعله دحمان؟

فقاطعه أبوه محتداً:

ـ صه.. لا تذكر أحد منهم.. وخطوبتك مفسوخه، هذه الخطوبة النحس أولها دم.

قال سعد وقد زاد أثر الألم على ملامح وجهه:

ـ يا أبي خطوبتي من عذراء لا أحد يتكلم فيها.. مالي زوجة إلا عذراء..

قال سعد هذا وأغمض عينيه مسترجعاً، فنهض سعيد الدرويش ووجه حديثه لوالد سعد قائلاً:

ـ يا أبا سعد.. أهم شيء سلامة سعد وعافيته، أما الكلام الباقي ليس وقته الآن إذا أصبح سعد بخير والنفوس هدأت فلكل مقام مقال..

قال هذا سعيد الدرويش وودع سعد وأبيه داعياً لسعد بالشفاء والعافية، وخرج منطلقاً إلى بيته.

-٩-

مَرَّ ظهر ذلك اليوم مملاً كئيباً على سعيد الدرويش وابنته عذراء وأمها، فخيَّم على بيتهم الحزن والأسى، وصمتت عذراء وأنكفئت في غرفتها مستغرقة في الحزن والتفكير تتنازعها الخواطر والهواجس، وهي لا تكاد تصدق بأن صرح أحلامها انهار فجأة دون أن تحسب حساباً لذلك، فيقينها بحب سعد لها لا تزعزعه أي عاصفة تعصف به، ولولا طمئنة أبيها لها بأن سعد متمسك بها وبالزواج منها لكان حالها أسوأ حالاً مما هي عليه الآن، وارتضت بأن تحني رأسها للعاصفة حتى تستكين وبعدها يكون ما قدره الله، وأما سعيد الدرويش فلم يستقر له خاطر وتجاذبته الأفكار وأشتدت عليه ففزع إلى مصحفه وأخذ يتلوه بصوت جهوري يبدد به وحشة ذلك الجو الكئيب المخيم على بيتهم، وأعتكف في بيته ذلك اليوم ولم يخرج حتى لصلاة العصر في المسجد فصلاها في بيته وبعدها دخل في أذكاره من تسبيح وصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وفي خلوته تلك قرع عليه الباب فهرعت أم عذراء إليه ملبية قائلة:

ـ من بالباب؟

ـ أنا رسول الأمير ناجي بن قملا.. هل الشيخ سعيد موجود..

ـ نعم موجود ..

ـ أخبرية بأن الأمير ناجي سوف يزوره في البيت وسيأتي بعد قليل..

ـ مرحبا..

أنطلق رسول الأمير ليخبر أميره بما أرسله، وأم عذراء دخلت على زوجها لتخبره بقدوم الأمير ناجي بن قملا لزيارته، فاستغرب هذه الزيارة فقال:

ــ ابن قملا يزورني في بيتي!!؟ ماذا عساه يريد؟، اللهم أجعله خير..

ـ لعله يريد الأعتذار يا سعيد؟

ـ لا أظن هذا فليس مثله يعتذر لمثلي، ولكن انهضي ورتبي الغرفة واعدي القهوة وما عندك فليس الزائر باليسير.

فتح الشيخ سعيد باب داره ووقف عليه لأستقبال القادم الكبير، وما هي إلا هنيئة حتى أقبل الأمير ناجي ومعه القائد سطام النجدي وحارسان، فنزلا من على حصانيهما وقبض الجنديان خطام فرسي الأمير

والقائد وبدأ الأمير بالسلام على الشيخ سعيد فهش الشيخ سعيد مرحباً بهما وحياهما واصطحبهما إلى داخل الدار أما الجنديان الحارسان فوقفا على الباب للحراسة، كان الشيخ سعيد متهلل الوجه لمقدم زائريه باشاً ضحوكا، وهو يردد:

ـ أهلاً ومرحباً .. أهلاً ومرحباً.. نورتم بيتنا .. شرفتوني.. يا مرحباً يا مرحباً..

جلس الأمير والقائد على القطيفة المفروشة لهما وتبادلا التحايا والسلام مع الشيخ سعيد، ونهض وأحضر القهوة وطبق التمر وطبق الزبيب وصب القهوة وقرب لها الأطباق أمامهما، فاحتسوا القهوة وتبادلوا الأحاديث وعرف الأمير بالقائد سعود قائلا:

ـ أعرفك يا شيخ سعيد على قائد كتيبة الفرسان القائد سعود العتيبي.

ـ مرحبا بالقائد سعود تشرفت به.. رأيته من قبل وحادثته..

ـ أين.؟

ـ في ساحة السوق ساعة حدوث حادثة سعد ودحمان..

ضحك القائد سعود ضحكة خفيفة وقال:

ـ نعم يوم اتهمتني بقتل سعد..

قال الشيخ سعيد في شيء من الارتباك: حاشاك تفعلها ولكن لم أعرف وقتها من أنت ووجدتك وفرسانك مسلحين بالبنادق فتبادر إلى ذهني بأنكم أنتم الفاعلين.

قال الأمير مداعباً: حصل خير.. والحمد لله لم يمت سعد، وإن كان مات حلمه بالاقتران بخطيبته..

قال الشيخ سعيد مستدركاً: أي والله أيها الأمير.. ما سمعناه اليوم من أم سعد وأبيه شيء لا يطاق.. حملونا ذنب ليس لنا.. وجريرة لم نقترفها.. ولا نعرف ماذا عسى أن يكون بعد ذلك؟

ـ أي والله.. لهذا اليوم زرتكم لانه بلغني بأن والد سعد فسخ خطبته لعذراء، وعذراء يتمناها كل صاحب مروءة، وإني أخطبها لنفسي وأريدها زوجة لي على سنة الله ورسوله..

تفاجأ الشيخ سعيد بطلب الأمير وبانت على ملامحه الدهشة والاستغراب، وتدخل القائد سعود قائلاً:

ـ أنا لا أزكي الأمير ولكن أشيد به، فهو من هو.. ولكن لو كان عندي عشر بنات وطلب واحدة منهن للزواج لعرضت عليه العشر يختار منهن من يشاء.. ولكن ما حيلتي ليس لدي بنت..

قهقه الأمير وتبعه الشيخ سعيد في قهقة خفية وقال:

ـ ولكن سعد مازال متمسك بخطبته لعذراء وجاهر أباه بذلك قائلاً له (يا أبي خطوبتي من عذراء لا أحد يتكلم فيها.. مالي زوجة إلا عذراء..) قال هذا أمامي ومشدد على تمسكه بخطبته لعذراء.. والشرع نهى عن خطبة الرجل على خطبة أخيه.. إلا إن تخلى سعد بعظمة لسانه فأنا حل بعد ذلك من خطبته.

أطرق الأمير رأسه إلى الأرض ثم رفعه وتبادل النظرات مع القائد سعود ونظر إلى الشيخ قائلاً له:

ـ لا باس.. سنتظر أسبوع من الآن وعليك مراجعة سعد فإن أقر فسخ خطبتة، فعذراء أنا خاطبها، فهل توافق؟

قال الشيخ بكل أريحية: نعم موافق.. ويقدم الله ما فيه الخير..

نهض الأمير وصاحبه مودعاً، ودس للشيخ سعيد بين يديه صرة من المال، أعتذر الشيخ سعيد عن قبولها أولاً.. ولكن إصرار الأمير له على أخذها أثناه وهو يقول له:

ـ هذه هدية والنبي قبل الهدية يا شيخ سعيد..

أخذ الشيخ سعيد الصرة وهو يتمتم بالشكر والثناء للأمير، ورافقه إلى الباب الخارجي مودعاً، فاذا بالشارع ملئ بأهل الحارة من نساء وأطفال وبعض الرجال تجمعوا حين رأوا مقدم الأمير على الشيخ سعيد

فاوجسوا خيفة أنجلت حين شاهدوا الشيخ سعيد يودعهم بحفاوة بالغة فتفرق الجمع، وغادر الأمير ومن معه الحارة مخلفين خلفهم تساؤلات أهل الحارة، منهم من يقول بأنهم يريدون أن يسجنوا الشيخ سعيد ومنهم من يقول بأنهم ارادوا تفتيش البيت، ومنهم من يقول بأنهم يريدون استمالة الشيخ سعيد ليكون داعية معهم.. ولم يخطر على بال أحد منهم بأن الأمير أتى ليخطب عذراء بنت الشيخ سعيد الدرويش، إلا سعد حين علم بالخبر أوجس خيفة وساورته الظنون فما عسى أن تكون زيارة الأمير بن قملا لعمه سعيد وهو بالأمس كان سجينه ولم تشفع الوساطات والشفاعات لإطلاق سراحه إلا ذهاب عذراء ومعها النسوة لمقابلته ولعل المقابلة تلك تركت أثراً في نفس الأمير فجاء لاستمالة الشيخ سعيد والخوف كل الخوف لو طلب يد عذراء للزواج فهذه الطامة الكبرى أن يقارعني على خطيبتي أمير الجيش، كانت هذه الهواجس تجول في خاطر سعد ويزداد به القلق والخوف من المجهول فمن عساه يأتيه بالخبر اليقين.. من تراه؟..

وبينما هو على تلك الحالة البائسة إذ دخلت عليه أخته (سعيدة) الغرفة فناداها في اهتمام كبير قائلاً:

ـ يا سعيدة.. هل علمتي ماذا يريد ابن قملا من عمي سعيد؟

ـ لا.. لم يخبر العم سعيد أحد بذلك.. ولا نعرف ماذا يريد..

ـ أنا أعرف ما يريد وقلبي يحدثني بذلك..

ضحكت سعيدة ضحكة ساخرة وهي تقول:

ـ قلبك يحدثك.. ماذا عساه أن يقول قلبك..؟

ـ أسمعيني ولا عليكِ من قلبي.. أذهبي إلى عذراء وأعرفي منها الخبر بينك وبينها وقولي لها سعد يبلغك السلام.. ويقول لك لن يفرط فيك مهما حصل وحبه زاد لك أكثر..

ـ الله يا سعد ما هذا؟.. أهي غيرة من زيارة ابن قملا لهم؟

ـ لا عليكِ أنتِ .. بلغي رسالتي وحسبكِ هذا يا سعيدة..

ذهبت سعيدة وأوصلت رسالته إلى عذراء وعرفت منها خطوبة ابن قملا لها ورد أبيها له وتمسكه بسعد وخطوبته، ثم قالت لها هامسة قولي لسعد:

ـ (عذراء مثلك تماماً لو أتوها ملوك الأرض جميعاً لن تقبل إلا بك).

ـ ولكن ألا تخشين نقمة الأمير بن قملا لرفضك له؟

ـ أنا لا أخشى إلا الله.. والإسلام نهى خطبة الأخ على أخيه، وأعطاني الإسلام حرية القبول والرفض فلا زواج للبنت إلا برضاها..

ـ وإن أرغمك أبوك خشية بطش الأمير؟

ـ حدود الله لا يتعداها إلا ظالم وأبي ليس من ذلك الصنف فإنه لن يفعل ذلك رضاءً لله وطاعة قبل كل شيء..

ـ يعني هذا...

قاطعتها عذراء وقد قبضت على معصمها قائلة لها:

ـ لا هذا ولا ذاك.. أنهضي وبلغي سعد رسالتي ولا تتأخري عليه في قلقه؟

ـ نعم نعم .. سأنطلق .. آها لم يعرف الشوق إلا من يكابده..

- ١٠ -

انقضى أسبوع والأمير ناجي بن قملا يترقب الخبر من الشيخ سعيد الدرويش، كيف له لم يوافيه بالخبر ويحزم أمره، وهو لا يريد (قبل أن يتحقق) أن يتعلق قلبه بهذه الفتاة التي سحرته بحسن حديثها وأعتدال قامتها ونظرة عينيها الواسعتان، فالقلق يستبد به والشوق يزداد في قلبه ويضطرب كلما ذكر أسمها أو افتكر حديثها، فلا بد لهذا الأمر أن يعرف قراره، فلا ينبغي لقائد الجيش بما يحمل من مهام كبار بأن ينشغل قلبه بعواطف لم يعرف قبولها من الطرف الآخر، وكان صباح يوم الخميس ندياً طرياً تهب نسماته العليلة فتنعش الروح، أمتطى الأمير حصانه وتبعه أحد حراسه حين أشار إليه، وتوجه إلى بيت الدرويش حاملاً في قلبه أمل ورجاء يود أن يحققه الله له، وبشجاعة وصرامة القائد وإقدامه، أمر حارسه بأن يقرع الباب، فلبته أم عذراء مستفسرة:

ـ من الطارق؟

ـ الأمير ناجي بن قملا..

ـ أهلاً وسهلاً ومرحباً..

كانت دهشة أم عذراء كبيرة من حضور الأمير بنفسه ولم ينتظر الخبر من الشيخ سعيد ليبلغه إياه، ولكنها أردفت قائلة:

ـ الشيخ سعيد ذهب إلى القرية المجاورة وسيعود بعد قليل إن أردت بأن تنتظره فأهلاً وسهلاً، تفضل في غرفة الضيوف..

الأمير ناجي يعرف عادات أهل الريف والبوادي فهي تكاد متشابهة في عموم الجزيرة العربية، والمرأة في هذه المجتمعات ليس كأختها في المدن والحواضر، فالمرأة الريفية والبدوية امرأة عاملة في الزراعة ورعي الأغنام وجلب الماء من الآبار وغيرها من الأعمال الحياتية، وهي لهذا لاتلتزم العباية المعروفة في المدن ولا ترتديها وأنما لها ثوبها المفصل لحاجتها وتغطي رأسها بالنقاب وتضع على وجهها البرقع ذو الثقوب المفتوحة أمام العينين، وهي بلباسها هذا تضمن حرية الحركة في ظروفها المعاشة، وهن أيضاً يستقبلن الضيف الكريم إذا غاب رب البيت لبعض شأنه، فمكارم الأخلاق هي القانون السائد في هذه المجتمعات وهو المتحكم فيها، فأراد الأمير أولاً بأن يغادر الموضع ولكن قلبه لم يطاوعه، فيكفيه بأن يكون بقرب من يحب ولو طال الزمن، فقال لها:

ـ لا بأس إذا الشيخ سعيد سيعود قريباً سننتظره أنا وحارسي..

قال هذا الأمير ودفع بحصانه لحارسه ليربط الحصانان مع بعضهما، وولجا إلى غرفة الضيوف تحفهما تراحيب أم عذراء، فاجلستهما وفتحت النوافذ المطلة على الشارع ليدخل الهواء العليل إلى الضيوف وتعتدل التهوية، ثم دخلت إلى داخل بيتها وأخبرت أبنتها عذراء بوجود الأمير إبن قملا في غرفة الضيوف ينتظر عودة أبيها، فانزعجت عذراء من هذا الخبر وعبست غاضبة وقالت:

ـ ماذا يريد هذا ... أستغفر الله..

ـ ما بكِ يا عذراء.. أهكذا نستقبل ضيوفنا؟ ثم أنه بلا شك أتى ليعرف جوابنا على خطبته لكِ.. وقد مر أسبوع على طلبه؟

ـ جوابنا معروف.. فأنا مخطوبة لسعد.. ولا تجوز خطبته على خطبة سعد.

ـ دعي هذا الأمر لوالدك هو يفتي فيه.. وعلينا تقديم القهوة والفطور للضيوف.

أعدت عذراء وأمها القهوة وطبق التمر وأرغفة الخبز مع طبق البيض المقلي وأخذته إلى غرفة الضيوف تتبعها عذراء تحمل بعض منها،

وحينما رأى الأمير مقدم عذراء خلف أمها سر سروراً بالغاً وأعتدل في جلسته وقال:

ـ يا أم عذراء تكفي القهوة.. لا تكلفي نفسك الكثير؟

قالت أم عذراء وهي تمد سفرة الأكل أمام الأمير ناجي:

ـ هذا ليس من قدرك أيها الأمير ولكن الجود بالموجود.. وقدرك كبير..

أفرج الأمير عن أساريره وانشرح صدره للحديث فقال مخاطباً عذراء:

ـ كيف أنت يا عذراء الدرويش هههههه كان في نفسي شيء من هذا الأسم الدرويش بأرتباطه بالصوفية وكنت أفضل أن أناديك بعذراء شكلنزة هههههه ولكن بعد حديثكِ معي وما سمعته منك تغير نظري للدراويش وأصبحوا محل تقديري، وإن كانت عذراء شكلنزة أحلى وأشهى هههه .. ولكن ما تعني شكلنزة هل هو فعلاً الشكل النزه يا عذراء؟

قالت عذراء وقد غالبها الحياء:

ـ أطال الله عمرك سيدي الأمير.. حتى أنا في نفسي شيء من بن قمله ولكنها الأسماء والألقاب التي لحقتنا دون أذن ورغبة منا إن حسنت وإن قبحت، فلقبك لا يخفي أصلك الدهمي ولا لقبي يخفي أصلي السيباني، فالإنسان بعمله وصلته بالله، لا بلقبه ونسبه، (إن أكرمكم عند الله

أتقاكم)، وهذه شكلنزة أيضاً لم تكن هكذا من قبل كانت وادياً جدباً لا زرع فيه ولا ماء إلا من بعض العشب نبت من مياه الأمطار، وأراد الله بأن يكون لهذا الوادي شأن فشاهد أحد الرعاة في بطن الوادي ينبوعان ماء نزا من الأرض، فحمل البشرى لأهل القرى المجاورة للوادي وهو يصيح من الفرح:

ـ ينبوعان شكل نزا في الوادي.. ينبوعان شكل نزا في الوادي.. ويعني بالشكل (توأمان) أي متشابهان، فتجمع الناس حوله وقد كانوا في غاية الدهشة من الراعي وأخذوا يسألونه:

ـ أين الشكل نزا في الوادي؟.. في أي بقعة؟

فدلهما على مكان الماء من النبعين المتشابهين في الشكل في الوادي اللذان نزا من الأرض بقوة فتسابقوا إلى إصلاح انسياب المياه والبسط على الأرض البور لزراعتها فاصبحت مع تقادم الزمان مثل ما تراها الآن (شكلنزة) لم يفارقها الاسم الذي عرفت به في أول عهدها.

قال الأمير ناجي وقد ظل مشدوداً لحديث عذراء مصغياً إليها بحواسه كلها:

ـ لله درك يا عذراء.. وزادك من فضله فهماً وعلما، لم أجد هذا التفسير عند أحد غيرك.. وقد أزلتِ الكثير من غشاوة الجهل في نفسي بحقيقة

شكلنزة، فياسعد شكلنزة بك ياعذراء.. وكيف لا يطمع في هذا الشرف من يرومه؟

ـ أصلح الله الأمير.. لولا نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خطبة الأخ على خطبة أخيه لكان اختياري آخر.. ولكنها الأقدار ومشيئة الله هي الغالبة، ويكفيني أن جعلك الله لي أخاً ناصحاً وأميراً يقود جيش دعوة التوحيد يدعوا إلى الله على بصيرة، فطبت أيها الأمير شامخاً بما قلدك الله من أمانة أنت أهلاً لها.

طأطا الأمير رأسه وتأمل كلام عذراء وقد راق له واستقر في نفسه الرضا:

ـ حفظكِ الله يا أختاه.. وأسعدكِ مع سعد.. كل لَبس سوف يزول بلا شك وهذا ما دعاني بأن أحضر اليوم إلى داركم ليزول هذا الشك وأتحلى باليقين.. وقد رأيت منك عقلاً راجحاً وحكمة بليغة.. وفهماً عميقاً لقضايا مختلفة وأموراً شتى، وإني يا عذراء سائلك فما ترين في جلوسنا بشكلنزة؟

ـ خير ما فعلت يا سيدي.. شكلنزة واسطة الساحل الحضرمي ومنها تنطلق إلى أي مكان تريده..

ـ نعم هذا ما أردناه وقد كفانا الأمير ناجي بن علي بن بريك مؤونة الذهاب إلى الشحر وبقية مدن الساحل الحضرمي حيث تكفل بمحاربة البدع ونشر الدعوة وهذا غايتنا ومقصدنا، وإني أتأهب للرحيل والعودة

إلى نجد متى ما فرغ الدعاة من جولاتهم في الساحل الحضرمي.. وسامحيني يا عذراء عما بدر مني وليسامحني أبوك وليأتنِ إلى خيمتي لوداعي إن أحب.

نهض الأمير ناجي وودع عذراء وأمها معتذراً ومسلماً ثم عاد من حيث أتى.

- ١١ -

كانت شكلنزة تعج بجند الجيش السعودي المخيم فيها، حيث وجدوا في شكلنزة مراتع أنيقة وحدائق منيفة ومزارع بها من أصناف الأشجار ما لم يروه في سائر ريف حضرموت، وراق لهم أهل شكلنزة بما وجدوه عندهم من شيم المكارم ورقة الطبع ولين المعاشرة، ولولا أوامر قائد الجيش الأمير ناجي بن قملا لأطالوا المقام فيها، ولكنها أربعون يوماً أنقضت في شكلنزة وكأنها أسبوع، فحين عاد الدعاة من البلدان المبتعثين إليها كانوا يحملون الرضى التام في إبلاغ رسالتهم للناس في هذه البلدان، وأن أهلها من أهل السنة والجماعة وعلى مذهب الإمام الشافعي وأن المخالفات الشرعية لا تكاد تذكر، من بناء القبب والقبور النائفة ونهوا عن زيارتها حتى لا يقع العوام في المحضور والمنهي عنه منها، وارتاحوا لذلك القبول والمهادنة من قبل أهلها، فعادوا إلى شكلنزة ليخبروا أميرهم بإنجاز المهمة وتمام نجاحها، ولم يكن يعكر مزاجهم إلا وفاة القائد الداعية

(محمد بن فارس) الذي أدركته المنية في مدينة الشحر وهو برفقة أصحابه فدفنوه في مقبرة الشيخ (فضل) وأحتسبوه شهيداً للدعوة، وكان يوم الوداع في شكلنزة يوماً لم تشهد شكلنزة مثله، أتى أمير الشحر ناجي بن علي بن بريك لوداعهم ومعه من الحاشية الكثير وأتى العلماء والأعيان وكانوا يحملون الشكر للأمير ناجي بن قملا على سلمه ومهادنته وتفهمه لطبيعة أهل ساحل حضرموت ووثوقه بهم وسلامة عقيدتهم، وحين قال له أمير الشحر ذلك، همس أمير الجيش في أذنه قائلا:

ـ لم تزل شكي ووهمي إلا عذراء شكلنزة..

همس بهذا وأبتسم في وجه أمير الشحر ثم أردف قائلاً ومشيراً إلى سعيد الدرويش:

ـ هذا الشيخ سعيد الدرويش الذي أطلق ابن أخيه (دحمان) النار على خطيب أبنته (عذراء الدرويش)، فأرجو القبض على دحمان ومعاقبته على فعله في أسرع وقت، فهو هارب منذ ذلك اليوم، وأكرموا الشيخ سعيد هذا رجل صالح.

تفهم أمير الشحر ما قيل له ووعد الأمير ابن قملا بأن يوفي بوعده، وشد على يده وعانقه، وأمتطى الأمير ابن قملا حصانه وأعطى الجيش أمراً بالتحرك والرحيل، وكانت أيادي المودعين تلوح لهم بالسلام،

واعتلين نساء شكلنزة أسطح منازلهن ليروا رحيل ذلك الجيش الجرار، وحينما غاب وتوارى إبن قملا وجيشه عن الأنظار، إتجه الأمير ناجي بن بريك إلى الجمع حوله وأرتقى تلة قريبة منه وصاح في الجمع مخاطباً:

ـ أيها الناس.. أيها الناس.. رحل ابن قملا وجيشه.. وحمى الله بلادنا من القتل وسفك الدماء.. فالحمد لله الذي حفظ للمسلمين دمائهم وأرواحهم فلا يجوز للمسلم بأن يقاتل مسلماً، فالقاتل والمقتول في النار كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فابن قملا وجيشه قدموا بلادنا دعاة لا غزاة، ووجدوا من أهل السنة في حضرموت ما سرهم ولم يضرهم إلا القباب والأضرحة، وقد عاهدتهم على إقامة شرع الله في حكمي وفي رعيتي، وسوف نكتب على الرعية عهوداً لإقامة الصلاة في الجماعات ومن خالف وقصر في حضور صلاة الجماعة سوف يدفع غرامة يستلمها منكم مقادمة (الحارات)، ومن تكرر منه ذلك سوف يكون جزاءه الجلد والتعزير، فشمروا للطاعات بارك الله فيكم واحمدوا الله على ما هداكم وأنعم عليكم.

قال الأمير ناجي بن بريك كلمته وتوجهه لمن تجمع حوله، وأشار للأهالي بالإنصراف، وأستبقى سعيد الدرويش بجواره ومن أتى معه من الأعيان، وأخذهم إلى مزرعته العامرة الكبيرة في شكلنزة وكانت منتجعاً ومصيفاً عظيماً له وللأسرة الأميرية البريكية، تكثر في هذه المزرعة أشجار

النخيل والباباي والليمون والبيدان وأشجار التمر الهندي، كانت مساحتها الواسعة تزدهي بتلك الأشجار تتخللها شتلات الزهور والورود فتعطي الجو رائحة منعشة يستنشقها المرء فينتشي ويبتهج وتطير روحه في سمائها بمرأى الماء وخريره والخضرة والثمار اليانعة، وفي المزرعة جابية كبيرة (مسبح) يصب الماء فيها من النبع ثم يصرف ماؤها لسقي المزرعة متى ماأراد المزارع سقيا زراعته، كان الشيخ سعيد بجوار الأمير ناجي حينما دخلوا المزرعة راكبي أحصنتهم، ولم يسبق له أن دخلها ولم يرى ما بداخلها رغم سكنه بشكلنزة، فسعيد الدرويش رجل زاهد في هذه الدنيا وهذه الحياة، يسر بالقليل ويعيش بالرضى التام مطمئناً بنعمة الإيمان والطاعة، وكان كل من مع الأمير هاشاً باشاً بمنظر المزرعة وما تحويه، إلا سعيد الدرويش الذي أكتفى بالوقار والسكينة، حتى أستنكر منه ذلك الأمير ناجي فقال له مداعباً:

ـ ها.. يا شيخ سعيد أتريد مزرعة مثل هذه في شكلنزة؟

قال هذا الأمير وأبتسم في وجه الشيخ سعيد، فبادله الشيخ سعيد الإبتسامة وقال مجاوباً له: .

ـ لا والله يا سيدي الأمير لا أريد مثلها ولا أتمنى ذلك في شكلنزة.

ـ آه .. إذن أين تريدها عندنا في الشحر؟ هههه.

وبادله الشيخ سعيد ضحكه وانشراحه وقال له:

ـ لا يا سيدي في الشحر ستكون مزرعة مالحة ههه، ولكني أريدها أن شاء الله في الجنة فهي خير وأبقى وأجمل وأحلى..

ـ آه منك.. ومن تصوفك.. تغلبني بها.. تعلي بها شأنك.. وتضعف شأني.. نتهافت نحن على الدنيا وتهربون أنتم منها إلى الآخرة.. وهذا أيضاً إبن قملا أتى بجيش لا قبل بنا به، يريد محو البدعة وإحياء السنة ونحن أيضاً غافلون عن هذا مشغولون بالحكم وشؤون الرعية وفرطنا في أمور ديننا كثيرا..

ـ أصلح الله الأمير وأعانك يا سيدي على مشاق ما كلفت به، والتفريط مضرة والإفراط مضرة، ولا يستقيم حال الأمة إلا بالإعتدال، فنحن أصحاب السنة أهل المذاهب الأربعة نحمل جوهر الإسلام وصحيحه، فإن تراخينا في ما نحن فيه ضيعنا الأمانة وإن تشددنا في ما نحن فيه أيضاً ضيعنا الأمانة.

ـ ولكن إبن قملا ينكر علينا زيارة قبور الصالحين والتبرك بها والتوسل بهم..

ـ ابن قملا يحمل تعاليم الشيخ محمد بن عبدالوهاب النجدي، والشيخ محمد على المذهب الحنبلي درس في الحرم المكي على علماء الحنابلة،

ولكن كان مخالفاً لهم في بعض المسائل وهي فرعية متشدداً فيها ومغالياً في تشدده، ثم صادف آل سعود الذين أرادوا استعادة ملكهم على نجد وهم الذين لم يجدوا لهم خير معين إلا الشيخ محمد بن عبدالوهاب وتلاميذه فتبنوا تعاليمه ليجدوا ويخلقوا من يقاتل معهم على عقيدة، فالجندي صاحب العقيدة أقوى وأصلب المقاتلين وأشجعهم وذلك كان مطلب آل سعود وقد ظفروا به..

تنحنح الأمير ناجي ثم قال: .

ـ ولكنهم على حق فقد انتشرت البدعة بين العوام وأصبحت دينا..

ـ ليس بين أهل السنة والجماعة بدعة، ولكن هناك جهل استشرى في المجتمع الإسلامي أدى إلى التفريط والإفراط، فالمفرطون مقصرون في العلم والفقه، فهم مثلاً لا يعرفون آداب زيارة القبور والدعاء للأموات، فعلى العلماء تعليمهم وإرشادهم حتى لا يرتكبوا المخالفات الشرعية، ولا ينبغي للمتشددين بأن يبدعوهم ويخرجوهم من ملة الإسلام، فالجهل دواءه العلم والمعرفة، وقس على هذا..

ـ وهل عرف ابن قملا هذا..

ـ نعم حين علم أنه بين أهل السنة ولا يوجد بينهم أحد من الفرق الضالة، حتى من يتهمونهم بالتصوف هم من أهل الزهد، وخير أمة

الإسلام الزهاد الذين يحيون بين الناس ويموتون دون أن يتركوا خلفهم درهماً ولا دينارا..

ـ الحمد لله كفانا شر الحرب والقتال والإقتتال، فالقاتل والمقتول في النار، ولا ينبغي للمسلمين ذلك، فكل صراع الفرق المخالفة هو من أجل السلطة والحكم بها يشرعون لأنفسهم مايريدون ويخدم مصالحهم، ويجندون المخلصين من المسلمين بخلق الغيرة واستغلال العاطفة الدينية بما يرونه يوصلهم إلى مقاصدهم ولو أدى هذا لقتل الإبن أباه أو أخاه والعياذ بالله.

ـ صدقت سيدي الأمير..

ـ أوصاني الأمير إبن قملا بك خيراً يا شيخ سعيد ورجاء القبض على دحمان ومحاكمته في أسرع وقت، وإني أرسلت الأعين للبحث عنه في الشحر وما حولها وإن شاءالله يأتوني به مخفوراً.

ـ جزاكم الله خيراً سيدي الأمير وجمعنا وإياكم على خير وصلاح..

ـ آمين.. آمين.. ولا تنسى تأتيني حين تأتي إلى الشحر، فزيارة السيد العطاس قربت لعامنا هذا، ونريدها زيارة كبرى تنعش الأسواق والأرواح.

تمتم الشيخ سعيد الدرويش قائلاً (إن شاء الله.. إن شاء الله)، واستأذن بالإنصراف، أما الأمير فمكث في مزرعته بشكلنزة إلى ما بعد العصر ثم غادرها عائداً إلى مدينة الشحر عاصمة إمارته.

ـ ١٢ ـ

صباح جديد يطل على شكلنزة، صباح مشرق مبهج، تصبغ على محياه السكينة والهدوء المعتاد في تلك القرية الوادعة، لا شيء يعلو في سماء القرية إلا زقزقة العصافير وتحليقها وتنقلاتها من شجرة إلى شجرة، وحين عاد الشيخ سعيد الدرويش من مسجده إلى بيته وجد زوجته أم عذراء كعادتها في مطبخ الدار خبزت العجين وأعدت القهوة وجهزت الإدام، ولم يرَ ابنته عذراء فرابه ذلك وسأل أمها:

ـ أين عذراء مالي لا أراها؟

ـ عذراء منطوية على فراشها.. (قالت هذا أمها بتدمر).

ـ ما بها؟ أتشتكي من شيء؟

ـ لا بخير.. ولكن ادخل وانظرها يا سعيد..

قرع الشيخ سعيد باب غرفة عذراء قرعاً خفيفاً، فلم تجاوبه عذراء، فتح الباب ونظر إلى عذراء فوجدها تغط في نوم عميق وهي نائمة على جنبها الأيمن وضامة ركبتيها إلى بطنها وكأنها تصارع ألماً، أقترب منها ووضع كفه على جبهتها يتحسسها فلم يجد بها حرارة ولا علة، شعرت به عذراء وفتحت عيناها ورأت أباها بجوارها يتفقدها فنهضت واستوت جالسة تدفع عن نفسها النعاس، قال لها أباها:

ـ ما بكِ يا عذراء؟ هل تشتكين من شيء؟

فركت عذراء عينيها وقالت لأبيها:

ـ لا يا أبي.. بخير والحمد لله.. ولكن النعاس غلبني فنمت...

ـ لعلك سهرت البارحة أو نمت متأخرة؟

ـ لا.. نمت كعادتي ولكن استيقظت نصف الليل ولم يأتنِ النوم فتهجدت إلى الفجر..

استششف الشيخ سعيد الدرويش من حديث ابنته وحالها بأنها كثيرة التفكير والإنشغال، ورجح ذلك بتعلقها بخطيبها سعد والحادثة التي لحقت به وغيرت مجرى حياتها، قال لها:

ـ لا أريدك تشغلي بالك كثيراً.. ما قدر الله يكون.. حتى النفوس تهدأ وسوف تعود المياه إلى مجاريها.. ولا تيأسي من روح الله.. ما فيه الخير سيقدره الله لنا.. فدعي الأمور له.. وتوجهي إليه بالرضى والطاعة واشغلي نفسك بما هو أنفع لك وللناس.. فأحب الخَلق إلى الله أنفعهم لعباده.

ـ إن شاء الله يا أبي.. إن شاء الله..

ـ الأمير ناجي بن بريك يريدك بأن تعلمي البنات وتفتحي (معلامة) في شكلنزة، وسوف يبعث لكن "المصاحف" و"القاعدة البغدادية" و"سفينة النجاة" من الشحر لتعلميهن إياهم، وأجرتك بالأسبوع سوف يسلمها لنا الأمير عن طريق المقدم عبدان، فأخبري الجيران وأهل (الحارة) ليوفدوا بناتهم إلى دارنا لتكون لهم علمة في الغرفة الكبيرة، وأنا سوف أخبر الرجال في المسجد وأُعلمهم بفتح العُلمة من يوم السبت القادم وأحثهم على إرسال بناتهم إليها..

فرحت عذراء بهذا الخبر.. وانهالت على يد أبيها تقبلها ووجهها طافح بالبشر والفرح، فما أسعدها اليوم وقد من الله عليها بأن تكون معلمة للبنات، وأن تكون صاحبة رسالة تؤديها في مجتمعها طاعة لله وتعبداً وقربة، ونهضت لتلحق بأمها لتعد معها فطور الصباح وتقوم بعمل البيت المعتاد منها.

وما أن أنتصف النهار حتى ارتدى الشيخ سعيد الدرويش ثوبه وأردف على ظهره رداءه وخرج إلى مقصده، كانت وجهته بيت سعد بن سعد، فسعد يتماثل للشفاء وبدأ جرحه يندمل، ولكن الجرح الذي في نفس أبويه مازال حياً رغم فرار دحمان وأختفائه ولم يعرف أحد أين موقعه ومكانه، فأم سعد بها من الغضب على آل الدرويش مالم يعهده أحد منها، فهي كادت تفقد فلذة كبدها سعد بسبب خطوبته لعذراء، ولولا لطف الله لكان سعد في عداد الأموات، ولكانت هي تنوح عليه إلى أن تفارق الدنيا لتلقاه هناك في عالم البرزخ، ولكن كيف يتم رضى أم سعد ومن يستطيع بأن يدخل السكينة إلى قلبها، فهي تجزم بأن دحمان الدرويش سوف يتربص بسعد وسوف يعيد محاولته لقتله، ولا مجال لتلافي هذا الخطر إلا أن يعلم دحمان بفسخ خطوبة سعد من عذراء وتخليه عنها وزواجه من غيرها من بنات كبار البلد، وعلى هذا كان إصرار أم سعد رغم تمسك سعد بخطيبته وحبيبته عذراء، فهو لم يرَ إلا أنه خلق لها وخلقت له، ولن يفرقهما إلا الموت، وكان سعد يعيش ذلك الصراع النفسي العنيف فهو عليه أشد من ألم جرحه، وخوفه من فقدانه أشد عليه من خوفه من دحمان ومحاولات قتله، فإن يمت شهيداً لحب عذراء خيرٌ له من أن يعيش في أتون نار فراقها والبعد عنها.

اقترب سعيد الدرويش من دار سعد فوجد نافذة غرفة استقبال الرجال مفتوحة فنظر من خلالها فوجد سعد متكئ على مخدته القطنية فناداه:

ـ سعد.. السلام عليكم..

نظر سعد إلى عمه سعيد الدرويش فنهض متهللاً ومرحبا به، وأشار عليه بأن يتفضل بالدخول إليه، وهو يردد بصوت جهوري:

ـ وعليكم السلام.. مرحباً عم سعيد تفضل.. تفضل.

دخل الشيخ سعيد مصافحاً سعد وجلس بجواره سائلاً عن حاله مطمناً إياه بالشفاء وتمام الصحة من الله تعالى، ثم همس قائلاً له:

ـ يا سعد أمك مازالت غاضبة ومصرة على فسخ خطوبتك من عذراء، وأنت تعرف بأن لا ذنب لنا فيما فعله دحمان، فهو اعتدى علينا باعتدئه عليك، وأوجعنا مثلما أوجعك وأكثر، وأنت الآن كيف وماذا ترى؟

قال سعد وقد ظل مشدوداً لحديث عمه سعيد:

ـ لا عليك من أمي يا عم سعيد عندما أشفى تماماً ستعود إلى طبيعتها وترضى عما أخترته، وأنا أخترت عذراء وهي خطيبتي، ولا ذنب لكم فيما

أقترفه دحمان، فهو صديقي وأعرفه وأعرف غيرته، ولي معه مواقف كثيرة فما راعني ولا صرفني عن مبتغاي.

ـ الآن إطمأننت وهدأ قلبي، ولن أجد لابنتي عريساً مثلك أبداً يا سعد..

في هذه الأثناء كان والد سعد بباب الغرفة سمع كلام الشيخ سعيد فقال مخاطباً له:

ـ وأنا مثلك يا شيخ سعيد لن أجد لابني عروسة مثل عذراء أبداً..

دار الحديث حميمياً بين الثلاثة، فما بينهم لم يكن قليل أبداً، جمعتهما الطفولة والشباب وأيام الفرح والمرح وأيام الحزن والترح، قال الشيخ سعيد مخاطباً سعد:

ـ يا سعد الأمير ناجي بن بريك أوصاني بأن تفتح عذراء معلامة للبنات في شكلنزة وأن تفتح أنت بعد شفائك معلامة للصبيان أيضاً، وهو سيتكفل بالمصاحف وكتب الفقه، وسيعطي الأجرة الأسبوعية لعذراء ولك من عنده عبر المقدم عبدان، وقال لي ادعوني في زواج سعد وعذراء سآتيكم معي بهدية ستفرحكم جميعاً إن شاء الله.

أبتهج سعد وفرح بهذا الخبر، وسر والده، فهذه مكرمة من الأمير يخص بها شكلنزة، وكانت أم سعد حينما عرفت بوجود الشيخ سعيد في بيتها، أخذت تتنصت عليهم من خلف الباب، وكان الكلام والحديث فيما

بينهم لا يعجبها ويزيدها غيظاً، وحينما سمعت الحديث الأخير لم تحتمل الصبر، فقالت وقد اطلت برأسها وهي منتقبة:

ـ يا شيخ سعيد عذراء حرام تدخل بيتنا مادمت أنا حية، وأقفل الكلام في هذا الشأن.

قهقه الشيخ سعيد وتبعه سعد ووالده لتخفيف حدة أم سعد، وقال الشيخ سعيد:

ـ أمرك يا أم سعد.. لن يكون إلا ما كتبه الله وقدر..

قالت أم سعد وهي مطمئنة: .

ـ ونعم بالله ... الله يرزق أبنتك زوج غير سعد.. فسعد لم يعد لها..

حنق سعد من حديث أمه ومنازعتها لعمه سعيد وهي تعرف رغبته في أرتباطه بعذراء ولن يختار غيرها، ولم يدرِ كيف يتعامل مع أمه وعيى في إقناعها ورضاها بما يريد ويرغب، وفي هذه الأجواء المشحونة، نادى رجل من الخارج بصوته العالي:

ـ يا أبا سعد ... يا أبا سعد..

أجابه أبو سعد وأطل من النافذة فرأى رجل من جنود الإمارة البريكية فأجابه: مرحبا.. أهلاً تفضل.

قال الرجل: أعندك الشيخ سعيد الدرويش؟.. أريده.

ـ نعم عندي موجود.. مرحبا تفضل.

دخل الرجل إلى غرفة الأستقبال وسلم عليهم وقال له الشيخ سعيد:

ـ خير أيش عندك.. أنت قادم من الشحر؟

ـ نعم قادم من الشحر بأمر الأمير ناجي.. ومعي جثة..

قال الشيخ سعيد باستغراب:

ـ جثة.. جثة من؟.. أخبرني؟

ـ هي جثة دحمان الدرويش.. مات غرقاً حين حاول الفرار إلى ممباسا.. وأمرني الأمير بأن أسلمها لك..

قال الشيخ سعيد مستفسراً:

ـ كيف غرق وأين كان؟

ـ دحمان كان مختبئ عند أحد أصحابه في بلدة الحامي، وبالأمس تم تهريبه في أحد العباري يريد ممباسا إلا أنه غرق في بحر العيص والقى البحر جثته على الساحل وعرفنا من الناجين معه أسمه وقصته فأمر الأمير نقله اليكم فأنتم أهله، وقد وضعناه في مغسلة المسجد فأسرعوا في تجهيزه ودفنه.

نهض الشيخ سعيد وأبا سعد مسرعين إلى المغسلة ووجدوا هناك بعضاً من الناس أتوا مستطلعين حينما شاع خبر وصول الجثة، كان دحمان يتيماً وحيد أمه، ومن تكفل بتربيته أخواله مع عطف عمه سعيد الدرويش ورعايته له، ولهذا كانت عذراء تراه أخاً لها أكثر من أبن عم، وحين وصلها خبر وفاته بكت كثيراً رغم كونه سبباً في جرحها ومعاناتها فالغيرة القاتلة هي نتيجة حب من طرف واحد، أما سعد بن سعد فقد عانقته أمه عناقاً حاراً حين تيقنت من خبر وفاة دحمان وتمتمت لأبنها قائلة:

ـ الحمد لله.. كفانا الله شر دحمان وانتصف لنا منه..

أجهش سعد بالبكاء وهو يرتمي في حضن أمه فضمته إليها لتغدق عليه من عطف الأمومة وحنانها مايزيح عن كاهله العناء والألم، وأستلهمت من عناقه ودموعه مايصبوا إليه فقالت له تطمنه:

ـ الآن صفت لك عذراء يا سعد..

..... ولن ينازعك عليها أحد...

عذراء لك.. عذراء لك.

-١٣-

ما أجمل هدوء شكلنزة في صباحها الباكر، وما أنعش نسيمها وألطف جوها، فمع إشراقات الشمس الأولى تتقاطر نساء القرية بصحبة أطفالهن إلى برك الماء (الجوابي) القريبة منهن، فيغتسلن ويستحممن ويغسلن أطفالهن وما تيسر معهن من ملابسهن وملابس أسرهن ويقضين مع بعضهن لحظات معدودة قبل أن ينطلقن إلى مشاغلهن الأخرى، فمنهن من تجمع الحطب المطلوب لبيوتهن ومنهن من تجز البرسيم من الحقل لتطعم بهائمهن، ومنهن من يعدن لبيوتهن لإعداد الفطور وأعمال البيت العديدة، وهاهي شكلنزة اليوم تنعم بذلك الهدوء الأنيق بعد مضي ثلاثة أشهر من رحيل الجيش السعودي، فقد استكانت القرية من الضجيج والزخم، وعاد لشكلنزة الهدوء والإطمئنان.

وها هو فصل الخريف قد أقبل وأينعت أشجار النخيل باعذاق التمر، وحان آوان الحصاد، وتوافدت عوائل أهل الشحر قادمة إلى

شكلنزة كعادتها في كل عام لقضاء فصل الخريف فيها وفي القرى المجاورة لقريتهم، تمر النخيل هو الوجبة الرئيسية وأجمل ما في التمر لأهل الشحر نوع (المناصف) وهي التمرة التي نضج نصفها ونصفها الآخر أحمر ويتأهب للنضوج، يصاحب ذلك أقداح القهوة فلا يحلى أكل التمر إلا بشرب القهوة.

وفي ذلك الصباح كانت عذراء الدرويش بصحبة صديقتها شهباء يستحممن في (معيان الحومرة) وهو بركة ماء مسورة اعدت لأستحمام الإناث فلا يقربهن الرجال، وكانت عذراء يومها تنضح بالبشر والسعادة وهي تزف لصديقتها خبر قدوم صديقتهما الأثيرة (مزنة سماعيله) من الشحر لقضاء فصل الخريف بشكلنزة، وأخبرتها بالذهاب إليها في بيتها الملاصق لمزرعتهم الكبيرة (المغربية)، وقالت لها:

ـ بعد مانغتسل يا شهباء إلبسي ثيابك النظيفة لنقابل مزنه؟

ـ معك.. معك.. يا رفيقة عمري .. أبشري.

كان (معيان الحومرة) يعج بالنساء والبنات، فهن يغتسلن في أثوابهن، ويتفنن في دعك أجسادهن بمادة (الحتيكه) وهي مسحوق من ورق السدر يزيلن به ماعلق في أجسادهن من شوائب، فما أن تنتهي إحداهن من غسلها إلا وجسمها ينضح برونق الحسن والجمال، وكان

نصيب عذراء وشهباء من ذلك الإغتسال والتطيب ما يشرح الخاطر ويسر القلب، فانطلقتا إلى لقاء صديقتهما (مزنة) يحفهما الشوق الكبير لها فهما لم يرونها منذ غادرت مزنة مع أسرتها شكلنزة العام الماضي، وها هو عام ينقضي ويأتي فصل الخريف لتنعم شكلنزة وأهل شكلنزة بنازليها من أحبابهم وأهاليهم القادمون من الشحر، وكان آل مزنة أول من قدم هذا العام للخريف وقضاء إجازتهم فيها، ولم تطرقا الباب فأبواب شكلنزة لا تغلق من شروق الشمس إلى غروبها، ولكن يكتفي القادم بالنداء من على عتبة الباب فيكون الترحيب إيذاناً بالدخول، وحين رأت مزنة صديقتيها عذراء وشهباء طارت من الفرح وأقبلت مرتمية في أحضانهما في عناق يطفي لوعة الأشواق، فكان لقاء الأحبة، واجتماع الصحبة، وتبادلا الترحيب والسؤال عن الحال والإطمئنان على بعضهم البعض، قالت مزنة:

ـ آه يا عذراء الدرويش.. حسنك يحلا سنة عن سنة؟

قاطعتها شهباء معترضة قائلة:

ـ عفواً يا مزنة.. عليك تصحيح الإسم أولاً..

تلفتت مزنة إلى عذراء مستفهمة لعلها تكون قد أخطأت في نطق الإسم دون أن تشعر ، ولكن شهباء عالجتها وعلى ثغرها ابتسامة عريضه قائلة:

ـ هذه عذراء شكلنزة.. هكذا أمرنا أن نناديها الأمير ناجي بن قملا وليس الدرويش.

طفحت عيني مزنة بالبريق واطلقت ضحكتها مع صديقتيها في شيء من المداعبة والممازحة، وقالت لهن:

ـ آه يا صديقتي هذا ما شغلني قبل أن القاكما، ففي الشحر وصلتني أخبار كثيرة عن جيش ابن قملا ولقاء عذراء به وثنيه عن غزو الشحر بجيشه الجرار، وما حدث فيها من مشاكل من أجل عذراء كل ذلك حكايات تروى في الشحر فيها من الزيادة والتهويل مالا يقبله العقل السليم ولكن ها أنا الآن بينكن لأسمع حقيقة ما جرى..

ضحكت عذراء كثيراً وهي تهمهم:

ـ آه منكم يا أهل الشحر.. تحبوا الأخبار والقصص والأقاويل وتتبعها.. عادتكم من يثنيكم عنها (هههه)..

قالت مزنة مازحة:

ـ نعم نحب الأخبار (الزينة) وتفرحنا البطولات والشهامة منها نتعلم ونستفيد.

قالت عذراء: آه منك يا مزنة تغلبيني دائماً.. طيب..

ثم تنحنحت وتناولت قليلاً من الماء تبل به حلقها وتوجهت إلى مزنة قائلة:

ـ حين دخل الجيش السعودي إلى شكلنزة صادف حادث إطلاق النار على خطيبي سعد من قبل ابن عمي دحمان الذي فر هارباً من شكلنزة، وأتى أبي ووجد الجند وسعد مسجى على الأرض فعلموا انه عم دحمان فاخذوه إلى الأمير ابن قملا، وحين علم أن أسمه الدرويش ولقبه الصوفي أمر بحبسه، وشاء الله أن لا يموت سعد وتعافى وراجعنا الأمير ناجي بن قملا في إطلاق أبي وكان حوارا بيننا عن سنية أهل شكلنزة وحضرموت عامة وكان لهذا الحوار أثر فأطلق أبي وعدل خطة جيشه حتى غادر شكلنزة بعد أربعين يوماً قضاها بيننا.. فالجيش الذي أتى به جيش دعوة لا جيش غزو مثلما صرَّح وقال..

قالت مزنة مفندة: جيش دعوة.. هذا في ظاهر الأمر فالدعوة لا تحتاج إلى جيش جرار، وإنما أرسل آل سعود هذا الجيش ليوسع لهم رقعة ملكهم..

ـ نحن لا نعلم وإنما لنا الظاهر وبما يفصحوا عن مقاصدهم..

قالت مزنة: نعم لنا الظاهر ولكن أتت الأخبار بأن آل سعود سجنوا ابن قملا حينما عاد إليهم خالي الوفاض إلا من معاهدات مع بعض الأمراء ومشائخ القبائل...

قالت عذراء في شيء من الدعابة:

ـ أتتكم الأخبار يا أهل الشحر من نجد.. ونحن في شكلنزة غافلين لنا الله..

تدخلت شهباء قائلة:

ـ دعونا من إبن قملا.. فقد كان هنا ومضى.. حدثينا عن أخبارك يا مزنة فقد علمنا بأن أحدهم خطبك ليتزوجك؟

قالت مزنة في شيء من الألم: آه يا فرحة لم تتم.. قاتل الله الأعراف والعادات والتقاليد.. كونه لم يكن علوياً فقد رفضه أهلي..

قالت شهباء: لا حول ولا قوة إلا بالله.. ألا يعلم أهلك بأن رسول الله قال: (إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه)...

ـ بلى يعرفوه ولكن الأعراف الغبية لها شأن.. والخاسر الوحيد نحن البنات فانظري كم عانس من أهلنا نتيجة لمنعنا والسماح للرجال بالزواج من خارج القبيلة.. ولكن أنت يا عذراء متى زواجك من سعد؟

ـ بعد أسبوعين إن شاء الله يا مزنة وهذه دعوتك لحضور الزواج فبك أتشرف وأسعد..

ضجت شهباء ونهضت واقفة وهي تصرخ معاتبة:

ـ بعد أسبوعين زواجك يا عذراء وأنا آخر من يعلم.. يا عيب عليك.. يا عيب..

بينما بهتت مزنة من ردة فعل شهباء وصراخها.. قهقهت عذراء ومدت يدها قابضة بمعصم شهباء وأجلستها وهي تقول:

ـ يا شهباء أنت ومزنة الآن أول من يعلم بميقات زفافي.. والله ما أخبرني إلا البارحة أبي.. عاد متأخراً بعد صلاة العشاء ودعاني وأمي وقال لنا (استدعاني أبو سعد إلى بيته وجاء المقدم مبارك عبدان والمقدم سالم بامؤمن وحضر سعد.. وقال المقدم عبدان أوصاني الأمير ناجي بن بريك بأن أبلغكم برغبته في استعجال زفاف سعد وعذراء خلال هذه الأسبوعين قبل انشغاله وهو سيكون حاضراً مع أعيان الإمارة كل مراسيم الزفاف فماذا تقولون..

تبادلنا الرأي أنا وسعد ووالده ووافقنا على تجهيز أنفسنا خلال هذه الأسبوعين..

قال لنا المقدم عبدان هناك هدايا من الأميران ناجي بن قملا وناجي بن بريك للعروسة عذراء تكريماً لمواقفها النبيلة في إسداء النصيحة والحكمة ..

فقلت أنا وما هي هذه الهدايا؟..

قال عبدان: هدية الأمير ناجي بن قملا فرس عربي أصيل تركه في مزرعة الأمير ناجي واوصاه يهديه لعذراء في يوم زفافها.. أما الأمير ناجي بن بريك فقد اهداها (بستان الدولة الصغير) تكريما لجهودها في ثني الجيش السعودي عن مهاجمة الشحر واكتساحها وترويع أهلها.. هذا ما قاله عبدان وما أخبرني به أبي.. وأنتن أول من يسمع هذا الخبر.. فجهزن انفسكن لمساعدتي في جهازي يا شهباء ومزنة..

نهضن شهباء ومزنة لمعانقة عذراء ومباركتها ووعدنها بالوقوف معها والعمل على تجهيزها.. ثم خرجن في نزهة إلى بستان (المغربية) لأهل مزنة ليقضين فيه بعض الوقت مستمتعات مروحات عن انفسهن، يغمرهن الفرح وتكتنفهن السعادة.. وينتظرهن الأمل.. فكان لهن ذلك اليوم يوماً من أجمل أيام حياتهن متعة واستجمام.

النهاية